

## البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة

نبذة عن التفسير

تفسير ابن عجيبة جَمَعَ بين التفسير التحليلي على منهج المفسرين ، وذكر كلام أهل الإشارة ، وهو كلام مُعْرَق في الرمزية ، كما هو الحال في كلام الصوفية . بل قد تكون تلك الإشارات لا تَمُتُّ لمعنى الآية بِصِلَةٍ لا من قريب ولا من بعيد !

وابن عجيبة يبدأ عبارته في ذكر تفسيرهم بقوله: قال أهل الإشارة... والتفسير الإشاري مُخَالِف لِطَرِيقَةِ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ قَالَ الزَّرْكَشِيُّ فِي الْبَرْهَانِ : كَلَامُ الصُّوفِيَّةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ قِيلَ : إِنَّهُ لَيْسَ بِتَفْسِيرٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ مَعَانٍ وَمَوَاجِدٌ يَجِدُونَهَا عِنْدَ التَّلَاوَةِ . اهـ . وهذا أقرب وأدقّ وصف في مثل هذا اللون من التفسير. وقد رأينا في مكتبة شبكة مشكاة إدراج هذا التفسير لما فيه من التفسير التحليلي ، مع عناية صاحبه باللغة العربية . ولا ننصح المُبتدئ ولا عامة الناس بِقِرَاءَتِهِ

### سورة الفاتحة

@# { بسم الله الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ } # \* { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } \*  
{ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ } \* { مَا لِكِ يَوْمَ الدِّينِ }

قلت: { الحمد } مبتدأ، و { الله } خبر، وأصله النصب، وقرئ به، والأصل: أحمد الله حمداً، وإنما عدل عنه إلى الرفع ليدل على عموم الحمد وثباته، دون تجدده وحدثه، وفيه تعليم اللفظ مع تعريض الاستغناء. أي: الحمد لله وإن لم تحمدوه. ولو قال (أحمد الله) لما أفاد هذا المعنى، وهو من المصادر التي تُنصَبُ بأفعال مضمرة لا تكاد تذكر معها. والتعريف للجنس؛ أي: للحقيقة من حيث هي، من غير قيد شيوعتها، ومعناه: الإشارة إلى مِمَّا يَعْرِفُهُ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّ الْحَمْدَ مَا هُوَ. أو للاستعراق؛ إذ الحمد في الحقيقة كله لله؛ إذ ما من خير إلا وهو مُوَلِيهِ بِوَاسِطَةِ وَبِغَيْرِ وَاسِطَةٍ. كما قال:

{ وَمَا يَكُم مِّن نُّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ }

[التحل: 53]، وقيل: للعهد، والمعهودُ حمدهُ تعالى تَفْسِيَهُ فِي أَرْلِهِ.

وَقُرِئَ { الْحَمْدُ لِلَّهِ } بِإِتْبَاعِ الدَّالِ لِلَّامِ، وَبِالْعَكْسِ، تَنْزِيلاً لَّهُمَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمَا يَسْتَعْمَلَانِ مَعاً مَنْزِلَةً كَلِمَةً وَاحِدَةً.

ومعناه في اللغة: الثناء بالجميل على قصد التعظيم والتبجيل، وفي العُرف: فعل يُنبئ عن تعظيم المُنعَمِ بسبب كونه منعماً. والشكر في اللغة: فعل يُشعر بتعظيم المنعم، فهو مرادف للحمد العرفي، وفي العرف: صرفُ العبدِ جميعاً ما أنعم الله عليه من السمع والبصر إلى ما خُلِقَ لِأَجْلِهِ وَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ. وانظر شرحنا الكبير للفاتحة في التَّسْبِيحِ التي بينها نظماً ونثراً.

و { الله } اسم مُرْتَجَلٌ جامد، والألف واللام فيه لازمة لا للتعريف، قال الواحدي: اسم تَفَرَّدَ بِهِ الْبَارِي - سبحانه - يجري في وصفه مجرى الأسماء الأعلام، لا يُعرف له اشتقاق، وقال الأَقْلِيْشِيُّ: إن هذا الاسم مهما لم يكن مشتقاً كان دليلاً على

عين الذات، دون أن يُنظر فيها إلى صفة من الصفات، وليس باسم مشتق من صفة، كالعالم والحق والخالق والرازق، فالألف واللام على هذا في (الله) من نفس الكلمة، كالزاي من زيد، وذهب إلى هذا جماعة، واختاره الغزالي، وقال: كل ما قيل في اشتقاقه فهو تعسف.

وقيل: مشتق من التَّأَلَّى وهو التعبد، وقيل: من الوَلَّهَان، وهو الحيرة؟ لتحير العقول في شأنه. وقيل: أصله: الإله، ثم حذفت الهمزة ونقلت حركتها إلى اللام، ثم وقع الإدغام وفُخمت للتعظيم، إلا إذا كان قبلها كسر.

و { رب } نعت { لله } ، وهو في الأصل: مصدر بمعنى التربية، وهو تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ثم وُصف به للمبالغة كالصوم والعدل.

وقيل: هو وصفٌ من رَبَّه يَرْبُّهُ، وأصله: رَبَبَ ثم أدغم، سُمي به المالك؛ لأنه يحفظ ما يملكه ويربِّيه، ولا يطلق على غيره تعالى إلا بقيد كقوله تعالى: { اَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ }

[يُوسُفُ: 50]. قال ابن جُرَيِّ: ومعانيه أربعة: الإله والسيد والمالك والمصلح، وكلها تصلح في رب العالمين، إلا أن الأرجح في معناه، الإله؛ لاختصاصه بالله تعالى.

@و { العالمين } جمع عالم، والعالم: اسم لما يُعَلَّمُ به، كالخاتم لما يُختم به، والطابع لما يطبع به. غلب فيما يُعلم به الصانع. وهو كل ما سواه من الجواهر والأعراض، فإنها لإمكانها وإفتقارها إلى مُؤَثِّرٍ واجب لذاته، تدل على وجوده، وإنما جُمع ليشمل ما تحته من الأجناس المختلفة، وغلب العقلاء منهم فُجِّعَ بالياء والنون كسائر أوصافهم، فهو جمع، لا اسم جمع، خلافاً لابن مالك.

وقيل: اسم وضع لذوي العلم من الملائكة والثقليين، وتناولهُ لغيرهم على سبيل الاستتباع، وقيل: عني به هنا الناس، فإن كل واحد منهم عالمٌ، حيث إنه يشتمل على نظائر ما في العالم الكبير، ولذا سوَّى بين النظر فيهما فقال: { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } [الذَّارِيَات: 21].

{ قلت } : وإليه يشير قول الشاعر:

يا تَائِهًا فِي مَهْمِهِ عَن سِرِّهِ    انْظُرْ تَجِدُ فِيكَ الْوُجُودُ بِأَسْرِهِ  
أَنْتَ الْكَمَالُ طَرِيقَةً وَحَقِيقَةً    يَا جَامِعًا سِرَّ الْإِلَهِ بِأَسْرِهِ

و { الرحمن الرحيم } اسمان بُنِيَا للمبالغة، من رَجِمَ، كالغضبان من غضب، والعليم من علم، والرحمة في اللغة، رَقَّةُ القلب، وانعطافٌ يقتضي التفضل والإحسان، ومنه الرَّجِمُ؛ لانعطافها على ما فيها. وأسماء الله تعالى إنما تُؤخذ باعتبار الغايات، التي هي أفعال، دون المبادئ التي هي انفعالات، و { الرحمن } أبلغ من { الرحيم }؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، كقَطَعَ وَقَطَعَ، وذلك إنما يُؤخذ تارة باعتبار الكمية، وأخرى باعتباره الكيفية.

فعلى الأول: قيل: يا رحمن الدنيا؛ لأنه يَعْمُ المؤمن والكافر، ورحيم الآخرة؛ لأنه يختص بالمؤمن، وعلى الثاني قيل: يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا؛ لأن النعم الأخرية كلها حِسَام، وأما النعم الدنيوية فجليلة وحقيرة.

وإنما قَدَّمَ { الرحمن } - والقياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى - لتقدُّم رحمة الدنيا، ولأنه صار كالعلم من حيث إنه لا يوصف به غيره، لأن معناه المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتهَا، وذلك لا يصدُّق على غيره تعالى. انظر البيضاوي. وسيأتي الكلام عليهما في المعنى.

و { مَلِكٌ } نعت لما قبله، قراءة الجماعة بغير ألف من (المَلِك) بالضم، وقرأ عاصم والكسائي بالألف، من (المَلِك) بالكسر، والتقدير على هذا: مالكٌ مجيء يوم الدين، أو مالك الأمر يوم الدين. وقراءة الجماعة أرجح، لثلاثة أوجه: الأول: أن الملك أعظم من مالك، إذ قد يوصف كل أحد بالمالك لماله، وأما المَلِك فهو سيد الناس، والثاني: قوله: { وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ } [الأنعام: 73]، والثالث: أنها لا تقتضي حذفاً، والحذف خلاف الأصل.

و { يوم الدين } ظرف مضاف إلى ما قبله على طريق الاتساع، وأجري الظرف مجرى المفعول به، والمعنى على الظرفية، أي: الملك في يوم الدين، أو ملك الأمر يوم الدين، فيكون فيه حذف. وقد رُويت القراءتان - أي: القصر والمد - عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد قرئ { ملك } بوجه كثيرة تركنا ذكرها لشذوذها. @فإن قيل: ملك ومالك نكرة؛ لأن إضافة اسم الفاعل لا تُخصص، وكيف يُنعت به { الرحمان الرحيم } وهما معرفتان؟ قلت: إنما تكون إضافة اسم الفاعل لا تخصص إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال؛ لأنها حينئذٍ غير مَحْصَةٍ، وأما هذا فهو مستمر دائماً، فإضافته محضة. قاله ابن جُرِّي.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله مُعَلِّماً لعباده كيف يُتَّبَعُ عليه ويعظمونه ثم يسألونه: يا عبادي قولوا { الحمد لله رب العالمين } أي: الثناء الجميل إنما يستحقه العظيم الجليل، فلا يستحق الحمد سواه، إذ لا منعم علماً للحقيقة إلا الله، { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ قَمِنَ اللَّهُ } [التحل: 53]. أو جميع المحامد كلها لله، أو الحمدُ المعهودُ في الأذهان هو حمدُ الله تعالى نفسه في أزله، قبل أن يُوجد خلقه، فلما أوجد خلقه قال لهم: الحمد لله، أي: احمّدوني بذلك المعهود في الأزل.

وإنما استحق الحمد وحده لأنه { ربّ العالمين } ، وكأن سائلاً سأله: لم اختصت بالحمد؟ فقال: لأنني ربّ العالمين، أنا أوجدتهم برحمتي، وأمددتهم بنعمتي، فلا منعم غيري، فاستحققت الحمد وحدي، مِنِّي كان الإيجاد وعليّ توالي الإمداد، فأنا ربّ العباد، فالعوالم كلها - على تعدد أجناسها واختلاف أنواعها - في قبضتي وتحت تربيتي ورعايتي.

قال بعضهم: خلق الله ثمانية عشر ألف عالم، نصفها في البر ونصفها في البحر. وقال الفخر الرازي: رُوي أن بني آدم عشر الجن، وبنو آدم والجنُّ عشر حيوانات البر، وهؤلاء كلهم عشر الطيور، وهؤلاء كلهم عشر حيوانات البحار، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الأرض الموكلين ببني آدم، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة سماء الدنيا، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة السماء الثانية، ثم على هذا الترتيب إلى ملائكة السماء

السابعة، ثم الكُلُّ في مقابلة الكرسي تَزُرُّ قليل، ثم هؤلاء عشر ملائكة السُّرَادِقِ الواحد من سُرَادِقَات العرش، التي عدُّها: مائة ألف، طول كل سِرَادِقٍ وَعَرْضُهُ - إذا قُوِبِلَتْ به السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما - يكون شيئاً يسيراً وَتَزُرُّ قليلاً. وما من موضع شَيْءٍ، إلا وفيه مَلَكٌ ساجدٌ أو راعٍ أو قائم، وله رَجُلٌ بالتسيح والتهليل. ثم هؤلاء كلهم في مقابلة الذين يَجُولُونَ حول العرش كالفطرة في البحر، ولا يَعْلَمُ عدُّهم إلا الله تعالى:  
{ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ }  
[المدثر: 31]. هـ.

وقال وَهْبُ بن مُثَنَّبٍ: (قائمُ العرش ثلاثمائة وست وستون قائمة، وبين كل قائمة وقائمة ستون ألف صحراء، وفي كل صحراء ستون ألف عالم، وكل عالم قَدْرُ الثقلين).

فهذه العوالم كلها في قبضة الحق وتحت تربيته وحفظه، يوصل المدد إلى كل واحد وهو في مستقره ومستودعه، إما إلى روحانيته من قوة العلوم والمعارف، وإما إلى بشريته من قوة الأشباح، من العرش إلى الفرش، كلها مقدرة أرزاقها محصورة أجالها، محفوظة أشباخها، معلومات أماكنها، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم.  
@ ثم هذه التربية التي ربي سبحانه بها خلقه إنما هي رحمة منه وإحسان، لا لزوم عليه وإيجاب، ولذلك وصله بقوله: { الرحمن الرحيم } ، أي: الرحمن بنعمة الإيجاد، الرحيم بنعمة الإمداد. " نعمتان ما خلا موجود عنهما، ولا بد لكل مُكَوَّنٍ منهما: نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، أنعم أولاً بالإيجاد، وثنى بتوالي الإمداد ". كما في (الحكم). فاسمُ { الرحمن } يقتضي إيجاد الأشياء وإبرازها، واسم { الرحيم } يقتضي تربيتها وإمدادها. ولذلك لا يجوز إطلاق اسم { الرحمان } على أحد، ولم يَتَسَمَّ أحد به؛ إذ الإيجاد لا يصح من غيره تعالى، بخلاف اسمه { الرحيم } فيجوز إطلاقه على غيره تعالى؛ لمشاركة صدور الإمداد في الظاهر من بعض المخلوقات مجازاً وعاريةً.

أو: الرحمن في الدنيا والآخرة، والرحيم في الآخرة: لأن رحمة الآخرة خاصة بالمؤمنين. أو الرحمن بجلائل النعم والرحيم بدقائقها، فجلائل النعم مثل: نعمة الإسلام والإيمان والإحسان، والمعرفة والهداية، وكشف الحجاب وفتح الباب والدخول مع الأحباب، ودقائق النعم مثل: الصحة والعافية والمال الحلال، وغير ذلك مما يأتي ذكره في المُنعم عليهم.

ثم من تحقق منه الإيجاد والإمداد استحق أن يكون ملكاً لجميع العباد، ولذلك ذكره يَأْتِرُهُ فقال: { ملك يوم الدين } أي: المتصرف في عباده كيف شاء، لا راداً لما قضى ولا مانع لما أعطى، فهو ملك الملوك رب الأرباب في هذه الدار وفي تلك الدار..

وإنما خصَّ يوم الدين - وهو يوم الجزاء - بالملكية؛ لأن ذلك اليوم يظهر فيه المُلْكُ لله عَيَاناً لجميع الخلق، فإن الله تعالى يتجلى لفصل عباده، حتى يراه المؤمنون عياناً، بخلاف الدنيا فإن تصرفه تعالى لا يفهمه إلا الكملة من المؤمنين، ولذلك ادَّعى كثير من الجهلة الملك ونسبوه لأنفسهم. ويوم القيامة ينفرد الملك لله عند الخاص والعام، قال تعالى:



إذا استغفر في ملاحظة جناب القدس، وغاب عما عداه، حتى إنه لا يلاحظ نفسه ولا حالاً من أحوالها إلا من حيث إنها تجلّ من تجلياته ومظهر لربوبيته، ولذلك فُضِّلَ ما حكى الله عن حبيبه حين قال:

{ لَا تَخْرُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا }

[التوبة: 40]، على ما حكاه عن كلمه حيث قال:

{ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ }

[الشعراء: 62]، أي: حيث صرّح بمطلوبه، و { إياك } مفعول { نستعين } وقدم أيضاً للاختصاص والاهتمام، كما تقدم في { إياك نعبد } . وكثّر الضمير ولم يقل: إياك نعبد ونستعين؛ لأن إظهاره أبلغ في إظهار الاعتماد على الله، وأقطع في إحضار التعلق بالله والإقبال على الله وأمدح، ألا ترى أن قولك: بك أنتصر وبك أحتمي وبك أنال مطالبني - أبلغ وأمدح من قولك: بك أنتصر وأحتمي... الخ؟

وقدّم العبادة على الاستعانة ليتوافق رؤوس الآي، وليعلم منه أن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى إلى الإجابة، فإن من تلبس بخدمة الملك وشرع فيها بحسب وسعته، ثم طلب منه الإعانة عليها أجيب إلى مطلبه، بخلاف من كلفه الملك بخدمته، فقال: أعطني ما يعينني عليها، فهو سوء أدب، وأيضاً: من استحضر الأوصاف العظام ما أمكنه إلا المسارعة إلى الخضوع والعبادة، وأيضاً: لما نسب المتكلم العبادة إلى نفسه أوهم ذلك تبجها واعتداداً منه بما يصدر عنه فعقبه بقوله: { وإياك نستعين } ، دفعاً لذلك التوهم.

والعبادة: أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه طريق هُجَعِدُّ، أي: مُدَلِّل، والاستعانة، طلب المعونة، والمراد طلب المعونة في المهمات كلها، أو في أداء العبادات.

والضمير المستتر في الفعلين للقارئ ومن معه من الحفظة وحاضري صلاة الجماعة، أو له ولسائر الموجودين. أدّرج عبادته في تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته بحاجتهم لعلها تُقبل ببركتها ويُجاب إليها، ولهذا شرعت الجماعة. قاله البيضاوي.

يقول الحقّ جلّ جلاله، تميماً لتعليم عباده: فإذا أثبتتم عليّ ومجدتموني وعظمتموني فأقروا لي بالربوبية، وأظهروا من أنفسكم العبودية، واطلبوا مني العون في كل وقت وقولوا: { إياك نعبد وإياك نستعين } ، وكأنه - جلّ جلاله - لَمَّا ذكر أنه مستحق للمحامد كلها قديمها وحديثها؛ لأنه رب العوالم وقيومها، أصل الأصول وفروعها، أنعم عليها أولاً بالإيجاد، وثانياً بتوالي الإمداد، فهو مالكها على الإطلاق، ذكر أنه لا يستحق أن يُعبد سواه؛ إذ لا مُنعم على الحقيقة إلا الله، فهو أحقُّ أن يُعبد، وأولى أن يفرد بالوجهة والقصد، لأنه مُسَيِّدٌ وغير مُسْتَمَدٍّ، والمادة من عَيْن الجود، فإذا انقطعت المادة انعدم الوجود.

@ قال البيضاوي: ثمّ إنه لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميّز بها عن سائر الذوات، تعلق العلمُ بمعلوم معين، خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصُّك بالعبادة والاستعانة، لكون أدلّ على الاختصاص، وللترفي من الغيبة إلى الشهود، وكان المعلوم صار عياناً، والمعقول مُشاهداً، والغيبة حضوراً، بتّى أول الكلام على ما هو مبادئ حال العارف؛ من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه، والنظر في آلائه، والاستدلال بصنائه على عظيم شأنه وباهر سلطانه، ثم قفى بما هو منتهى أمره، وهو أن يخوض لجة الوصول، ويصير من أهل المشاهدة، فيراه عياناً ويناجيه شفاهاً، اللهم اجعلنا من الواصلين إلى العين دون التابعين للأثر. ومن

عادة العرب التفنن في الكلام والعدول عن أسلوبٍ إلى آخر، تَطْرِبَةً وتنشيطاً  
للسامع، فَتَعْدِلُ من الْخِطَابِ إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله:  
{ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَخَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ... }  
[يونس: 22]، ولم يقل (بكم) وقوله:  
{ أَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ فَنُنَبِّئُ سَخَابًا فَسُقَّتَاهُ إِلَى بَلَدٍ... }  
[قاطر: 9]، أي: ولم يقل: فساقه... أنظر تمام كلامه.

والالتفات هذا في قوله: { إياك نعبد } ولم يقل: إياه نعبد؛ لأن الظاهر من قبل  
الغيبة، وحسنه أن الموصوف تعين وصار حاضراً.

قال الأقبليشي: فهذه الآية هي التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: " فإذا  
قال العبد: إياك نعبد وإياك نستعين، يقول الله تعالى: هذه بيني وبين عبدي  
ولعبدي ما سأل " معناه: أيُّ عبد توجَّه إليَّ بالعبادة وسألني العون عليها فعبادته  
متقبلة، والعون مني له عليها حاصل حتى يُوقَّعها على وجهها، فالعبادة وصف  
العبد، والعون من الله تعالى للعبد، فلهذا قال: " فهذه بيني وبين عبدي " .

قال ابن جُرِّي: أي نطلب العون منك على العبادة وعلى جميع أمورنا، وفي هذا  
دليل على بطلان قول القدرية والجبرية، وأنَّ الحق بين ذلك.

{ الإشارة } : لَمَّا تَجَلَّى الْحَقُّ جَلًّا جلاله من عالم الجبروت إلى عالم الملكوت،  
وَحَمَدَ نَفْسَهُ بنفسه، تَجَلَّى أيضاً وَتَنَزَّلَ من عالم الملكوت إلى عالم المُلْك بقدرته  
وحكمته؛ لإظهار آثار أسمائه وصفاته، فأظهر العبودية وأخفى الربوبية، أظهر  
الحكمة وأبطن القدرة، فجعلَ عالمَ الحكمة يخاطبُ عالمَ القدرة، ويخضع له،  
ويتعبد ويستمد، منه الإعانة والهداية، ويتحرز من طريق الضلالة والغواية.

فعالَمَ الحكمة محلُّ التكليف، وعالم القدرة محل التصريف، عالم الحكمة عالم  
الأشباح، وعالم القدرة عالم الأرواح، وإياك نعبد لأهل عالم الحكمة، وإياك نستعين  
لأهل عالم القدرة، ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: { إياك  
نعبد { شريعة، و { إياك نستعين { حقيقة، و { إياك نعبد { إسلاماً، و { إياك  
نستعين { إحساناً، { إياك نعبد { عبادة، و { إياك نستعين { عبودية، { إياك نعبد  
{ قَرْقُ، { إياك نستعين { جَمْعُ.

@ وإن شئت قلت: { إياك نعبد } لأهل العمل لله وهم المخلصون، و { إياك  
نستعين } لأهل العمل بالله وهم الموحِّدون، العمل لله يوجب المثوبة، والعمل  
بالله يوجب القُرْبَةَ، العمل لله يوجب تحقيق العبادة، والعمل بالله يوجب تصحيح  
الإرادة، العمل لله نعتُ كُلِّ عابد، والعمل بالله نعت كل قاصد، العمل لله قيامٌ  
بأحكام الظواهر، والعمل بالله قيام بإصلاح الصمائر، قاله القشيري.

ثم إنَّ الناسَ في شهود القدرة والحكمة على ثلاثة أقسام: قسم حُجِبوا بالحكمة  
عن شهود القدرة، وهم أهل الحجاب من أهل الغفلة، وقفوا مع قوله: { إياك نعبد  
{ ، وقسم حُجِبوا بشهود القدرة عن الحكمة، وهم أهل الفناء، وقفوا مع قوله:  
{ إياك نستعين } ، وقسم لم يحجبوا بالحكمة عن القدرة ولا بالقدرة عن الحكمة،  
أَعْطَوْا كُلَّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ وَوَقَّوْا كُلَّ ذِي قِسْطٍ قِسْطَهُ، وهم أهل الكمال من أهل  
البقاء، جمعوا بين قوله: { إياك نعبد وإياك نستعين } ، وبالله التوفيق.

@# { هُدَيْتَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } #

قلت: الهدايه في الأصل: الدلالة بلطف، ولذلك تُستعمل في الخير، وقوله:  
{ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ }  
[الصافات: 23] على التهكم، والفعل منه (هَدَى) بالفتح، وأصله أن يُعدى باللام، أو  
" إلى " ، فَعُوْمَل هُنَا مَعَامِلَةً:  
{ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ }  
[الأعراف: 155]. والصراط لغة: الطريق، مشتق من سَرَط الطعام إذا ابتغله،  
فكانها تبتلع السابله؛ أي المارة به، وَقُلِيْتُ السَّيْنَ صَادًا لَتَطَابِقَ الطَّاءُ فِي الإِطْبَاقِ،  
وقد تُشَمُّ زَايًا لِقَرَبِ المَخْرَجِ، و { المستقيم } الذي لا عوج فيه، والمراد به  
طريق الحق الموصلة إلى الله.

يقول الحق جلّ جلاله: مُعَلِّمًا لِعِبَادِهِ كَيْفَ يَطْلُبُونَهُ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَطْلُبُوا، أَي:  
قُولُوا { اهدنا } أي: أرشدنا إلى الطريق المستقيم، الموصلة إلى حضرة النعيم،  
والطريق المستقيم هو السير على الشريعة المحمدية في الظاهر، والتبري من  
الحول والقوة في الباطن، أو تقول: هو أن يكون ظاهرًا شريعةً وباطنًا حقيقةً،  
ظاهرًا عبوديةً وباطنًا حريةً، الفرق على ظاهره موجود والجمع في باطنك  
مشهود، وفي الحكم: " متى جَعَلَكَ فِي الظَّاهِرِ مِمْتَلًا لِأَمْرِهِ وَفِي البَاطِنِ  
مُسْتَسْلِمًا لِقَهْرِهِ، فَقَدْ أَعْظَمَ المِئْتَةَ عَلَيْكَ ."

فالصراط المستقيم الذي أمرًا الحق بطلبه هو: الجمع بين الشريعة والحقيقة،  
والمفهوم من قوله: { إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ } [القائحة: 5]، ولذلك وصله به،  
فكان الحق - سبحانه - يقول: " يا عبادي احمدوني ومجدوني وأفردوني بالقصد  
وحُصُونِي بِالْعِبَادَةِ، وَكُونُوا فِي ظَاهِرِكُمْ مُشْتَغِلِينَ بِعِبَادَتِي، وَفِي بَاطِنِكُمْ مُسْتَعِينِينَ  
بِحَوْلِي وَقُوَّتِي، أَوْ كُونُوا فِي ظَاهِرِكُمْ مُنَادِبِينَ بِخِدْمَتِي، وَفِي بَاطِنِكُمْ مُشَاهِدِينَ  
لِقُدْرَتِي وَعِظْمَةِ رَبِيبَتِي ."

وقال سيّدنا عليّ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ -: (الصراط المستقيم هنا القرآن). وقال جابر  
رضي الله عنه: (هو الإسلام) يعني الحنيفية السمحاء وقال سهل بن عبد الله: (هو  
طريق محمد صلى الله عليه وسلم). يعني اتباع ما جاء به. وحاصله ما تقدم من  
إصلاح الظاهر بالشريعة والباطن بالحقيقة، فهذا هو الطريق المستقيم الذي من  
سلطه كان من الواصلين المقربين مع النبيين والصدّيقين.

فإن قلت: إذا كان العبد ذاهباً على هذا المنهاج المستقيم، فكيف يطلب ما هو  
حاصل؟ فالجواب: أنه طلب التثبيت على ما هو حاصل، والإرشاد إلى ما هو ليس  
بحاصل، فأهل مقام الإسلام يطلبون الثبات على الإسلام، الذي هو حاصل،  
والترقي إلى مقام الإيمان الذي ليس بحاصل، على طريق الصوفية، الذين  
يخصون العمل الظاهر بمقام الإسلام، والعمل الباطن بمقام الإيمان، وأهل  
الإيمان يطلبون الثبات على الإيمان الذي هو حاصل، والترقي إلى مقام الإحسان  
الذي ليس بحاصل، وأهل مقام الإحسان يطلبون الثبات على الإحسان، والترقي  
إلى ما لا نهاية له من كشوفات العرفان  
{ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ }  
[يوسف: 76].

وقال الشيخ أبو العباس المرس رضي الله عنه: { اهدنا الصراط المستقيم }  
بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد فيما ليس بحاصل، ثم قال: عموم المؤمنين  
يقولون: { اهدنا الصراط المستقيم } أي: بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد لما  
ليس بحاصل، فإنه حصل لهم التوحيد وفاتهم درجات الصالحين، والصالحون  
يقولون: { اهدنا الصراط المستقيم } معناه: نسألك التثبيت فيما هو حاصل  
والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء،  
والشهداء يقولون: { اهدنا الصراط المستقيم } أي بالتثبيت فيما هو حاصل  
والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنهم حصلت لهم الشهادة وفاتهم درجات  
الصديقين، والصديقون يقولون: { اهدنا الصراط المستقيم } أي: بالتثبيت فيما  
هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم درجات الصديقين  
وفاتهم درجات القطب، والقطب يقول: { اهدنا الصراط المستقيم } بالتثبيت  
فيما هو حاصل والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنه حصل له رتبة القطبانية، وفاته  
علم ما إذا شاء الله أن يطلع عليه أطلعه.

@وقال بعضهم: الهداية إما للعين وإما للأثر الدال على العين، ولا نهاية للأولى،  
قلت: فالأولى لأهل الشهود والعيان، والثانية لأهل الدليل والبرهان، فالهداية للعين  
هي الدلالة على اللو. والهداية للأثر هي الدلالة على العمل، " مَنْ دَلَّكَ عَلَى اللَّهِ  
فَقَدْ نَصَحَكَ، وَمَنْ دَلَّكَ عَلَى الْعَمَلِ فَقَدْ أْتَعَبَكَ ". وإنما كانت الأولى لا نهاية لها؛ لأن  
الترقي بعد المعرفة لا نهاية له. بخلاف الدلالة على الأثر فنهايتها الوصول إلى  
العين، إن كان الدال عارفاً بالطريق.

قال البيضاوي: وهداية الله تتنوع أنواعاً لا يحصوها عد  
{ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا }  
[إبراهيم: 34] لكنها تنحصر في أجناس مترتبة:

الأول: إفاضة القوى التي بها يتمكن المرء من الاهتداء إلى مصالحه، كالقوة  
العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة.

الثاني: نصب الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد، وإليه الإشارة  
بقوله:

{ وَهَدَيْتُهُ النَّجْدَيْنِ }  
[البكدة: 10]، وقال:  
{ فَهَدَيْتَاهُمْ فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }  
[فصلت: 17].

الثالث: الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإياها عني بقوله:

{ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا }  
[الأنبياء: 73]، وقوله:  
{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ }  
[الإسراء: 9].

الرابع: أن يكشف عن قلوبهم السرائر ويُرِيَهُمُ الْأَشْيَاءَ كما هي بالوحي والإلهام  
والمنامات الصادقة. وهذا يختص بنبئه الأنبياء والأولياء، وإياه عني بقوله:  
{ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ }  
[الأنعام: 90].

{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا }  
[العنكبوت: 69].

فالمطلوب: إما زيادة ما منحوه من الهدى والثبات عليه، أو حصول المراتب المترتبة عليه، فإذا قال العارفُ الواصل عَنِّي بقوله: أرشدنا طريق السير فيك، لتمحو عنا ظلماتِ أحوالنا، وتُميط غواشيِ أبداننا، لنستضيء بنور قدسك فنراك بنورك. هـ.

قلت: قوله الرابع... الخ، في عبارته قَلِّقُ واختصار، والصواب أن يقول: الرابع - أن يكشف عن قلوبهم الظلم والأغيار، ويُشرق عليها الأنوار والأسرار، ويُريهم الأشياء كما هي بالوحي والإلهام، وباستعمال الفكرة في عظمة الملك العلام، حتى تستولي أنوار المعاني على جس الأواني، ثم يقول: وهذا قسم يختص بنيله الأنبياء والأولياء.

وقوله: فإذا قال العارف... الخ، الصواب أن يقول: فإذا قاله المرید السائر؛ لأن الواصل انمحت عنه الظلمات كلها والغواشي وسائر الأكدار؛ لأن الله تعالى عطى وصفه بوصفه ونعته بنعته، فلم يبقَ له وصف ظلماني. وأيضاً قوله: [أرشدنا إلى طريق السير] إنما يناسب السائر دون الواصل؛ لأن الواصل ما بقي له إلا الترقى، ولا يسمى في اصطلاح الصوفية [السير] إلا قبل الوصول. والله تعالى أعلم.  
#@ { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } #

قلت: { صراط } بدل من الأول - بدل الكل من الكل - وهو في حكم تكرير العامل من حيث إنه المقصود بالنسبة، وفائدته: التوكيد والتنصيص على أن طريق المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة، على أكد وجه وأبلغه؛ لأنه جعله كالتفسير والبيان له، فكأنه من البين الذي لا خفاء فيه، وأن الصراط المستقيم ما يكون طريق المؤمنين، و { غير المغضوب عليهم } بدل من { الذين } على معنى أن المُنعم عليهم هم الذي سَلِمُوا من الغضب والضلال. أو صفة له مُبَيَّنَة أو مقيدة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة، وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من الغضب والضلال، وذلك إنما يصح بأحد تأويلين: إجراء الموصول مجرى النكرة، إذ لم يُقصد به معهود كالمعرف في قوله:

وَلَقَدْ أَمَرْنَا عَلَى اللّٰثِمِ بِسُبُحٰنِ  
أَوْ يُجْعَلُ { غير } مَعْرِفَةً؛ لأنه أضيف إلى مآله ضد واحد، وهو المنعم عليه، فيتعين تعيين الحركة غير السكون، وإلا لزم عليه نعت المعرفة بالنكرة. فتأمل.

والغضب: تَوَرُّانُ النفس إرادة الانتقام، فإذا أسند إلى الله تعالى أريد غايته وهو العقوبة، و { عليهم } نائب فاعل: و { لا } مزيدة لتأكيد ما في { غير } من معنى النفي، فكأنه قال: ولا المغضوب عليهم ولا الضالين، وقرأ عمر رضي الله عنه: { وغير الضالين }، والضلال: والعدول عن الطريق السوي عمداً أو خطأ، وله عرض عريض والتفاوت بين أدناه وأقصاه كبير. قاله البيضاوي.

وإنما أسند النعمة إلى الله والغضب إلى المجهول تعليماً للأدب،  
{ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ... }  
[النساء: 79] الآية.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله في تفسير الطريق المستقيم: هو طريق الذين أنعمت عليهم بالهداية والاستقامة، والمعرفة العامة والخاصة، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، والمُنعم عليهم في الآية مطلق، يصدق كل منعم عليه بالمعرفة والاستقامة في دينه، كالصحابه وأصرايهم، وقيل: المراد بهم أصحاب سيِّدنا موسى عليه السلام قبل التحريف. وقيل: أصحاب سيِّدنا عيسى قبل التغيير. والتحقيق أنه عام.

قال البيضاوي: وَنِعْمَ لِلَّهِ وَإِنْ كَانَتْ لَا تُحْصَى كَمَا قَالَ اللَّهُ: { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا } [إبراهيم: 34] تنحصر في جنسين: دنيوي وأخروي.

فالأول: وهو الدنيوي - قسمان: موهبي وكسبي، والموهبي قسمان: رُوحاني، كنفخ الروح فيه وإشراقه بالعقل وما يتبعه من القوي، كالفهم والفكر والنطق، وجسماني: كتخليق البدن بالقوة الحالة فيه والهيئات العارضة له من الصحة وكمال الأعضاء. والكسبي: كتركبة النفس عن الرذائل، وتحليتها بالأخلاق الحسنة والملكات الفاضلة، وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والخلي المستحسنة، وحصول الجاه والمال.

والثاني: وهو الأخروي: أن يغفر له ما قَرَطَ منه ويرضى عنه ويُبوأه في أعلى عليين، مع الملائكة المقربين أبد الأبد، والمراد القسم الأخير، وما يكون وُضلة إلى نيله من القسم الأول، وأما ما عدا ذلك فيشترك فيه المؤمن والكافر. @ قال ابن جرِّي: النعم التي يقع عليها الشكر ثلاثة أقسام، دنيوية: كالصحة والعافية والمال الحلال. ودينية: كالعلم والتقوى والمعرفة. وأخروية: كالثواب على العمل القليل بالعطاء الجزيل: وقال أيضاً: والناس في الشكر على مقامين: منهم من يشكر على النعم الواصلة إليه، الخاصة به، ومنهم من يشكر الله عن جميع خلقه على النعم الواصلة إلى جميعهم. والشكر على ثلاث درجات: فدرجة العوام، الشكر على النعم، ودرجة الخواص: الشكر على النعم والنعم وعلى كل حال، ودرجة خواص الخواص: أن يغيب عن رؤية النعمة بمشاهدة المنعم. قال رجل لإبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: الفقراء إذا أعطوا شكروا وإذا مُنعوا صَبَرُوا، فقال إبراهيم: هذه أخلاق الكلاب، ولكن القوم إذا مُنعوا شكروا وإذا أعطوا أثروا. هـ.

ثم احتسب من الطريق غير المستقيمة، فقال: { غير المغضوب عليهم } أي: غير طريق الذين غضبت عليهم، فلا تهدنا إليها ولا تسلك بنا سبيلها، بل سلمنا من مواردها. والمراد بهم: اليهود، كذا فسرها النبي صلى الله عليه وسلم، ويصدق بحسب العموم على كل من غضب الله عليهم، { ولا الضالين } أي: ولا طريق الضالين، أي: التالفين عن الحق، وهم النصارى كما قال صلى الله عليه وسلم. والتفسيران مأخوذان من كتاب الله تعالى. قال تعالى في شأن اليهود: { قَبَاءٌ وَيَغَضَبُ عَلَى غَضَبٍ } [البقرة: 90]، وقال في حق النصارى: { قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا عَنْ سَبِيلِ السَّبِيلِ } [المائدة: 77].

واعلم أن الحق - سبحانه - قسم خلقه على ثلاثة أقسام: قسم أعدّهم للكرم والإحسان، يُظهِرَ فيهم اسم الكريم أو الرحيم، وهو المنعم عليه بالإيمان والاستقامة. وقسم أعدّهم للانتقام والعضب، يُظهِرَ فيهم اسمه المنتقم أو القهار، وهم المغضوب وعليهم والضالون عن طريق الحق عقلاً أو عملاً، وهم الكفار، وقسم أعدّهم الله للجلم والعفو، يُظهِرَ فيهم اسمه تعالى الحليم والعفو، وهم أهل العصيان من المؤمنين.

فمن رام أن يكونَ الوجودُ خالياً من هذه الأقسام الثلاثة، وأن يكون الناس كلهم سواء في الهداية أو ضدها، فهو جاهل بالله وبأسمائه؛ إذ لا بد من ظهور آثار أسمائه في هذا الآدمي، من كرم وقهرية وجلم وغير ذلك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الطريق المستقيم التي أمرنا الحق بطلبها هي: طريق الوصول إلى الحضرة، التي هي العلم بالله على نعت الشهود والعيان، وهو مقام التوحيد الخاص، الذي هو أعلى درجات أهل التوحيد، وليس فوقه إلا مقام توحيد الأنبياء والرسول، ولا بد فيه من تربية على يد شيخ كامل عارف بطريق السير، قد سلك المقامات ذوقاً وكشفاً، وجاز مقام الفناء والبقاء، وجمع بين الجذب والسلوك؛ لأن الطريق عوبص، قليل حُطَاةٍ، كثير فُطَاةٍ، وشيطانٌ هذا الطريق قَبِيهٌ بمقاماته ونوازله، فلا بد فيه من دليل، وإلا ضلّ سالكها عن سواء السبيل، وإلا هذا المعنى أشار ابن البنا، حيث قال:

@ وَإِنَّمَا الْقَوْمُ مُسَافِرُونَ لِحَضْرَةِ الْحَقِّ وَظَاعِنُونَ  
فَاقْتَرُوا فِيهِ إِلَى دَلِيلٍ ذِي بَصَرٍ بِالسَّيْرِ وَالْمَقِيلِ  
قَدْ سَلَكَ الطَّرِيقَ ثُمَّ عَادَ لِيُخْبِرَ الْقَوْمَ بِمَا اسْتَفَادَ

وقال في لطائف المنن: (من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الأتباع، ويكشف له عن قلبه القناع، فهو في هذا الشأن لقيط لا أب له، دَعِيٌّ لا تَسَبَّ له، فإن يكن له نور فالغالب غلبة الحال عليه، والغالب عليه وقوفه مع ما يرد من الله إليه، لم تَرْضُهُ سياسةُ التأديب والتهديب، ولم يَقْدُهُ زَمَانُ التربية والتدريب)، فهذا الطريق الذي ذكرنا هو الذي يستشعره القارئ للفتحة عند قوله: {اهدنا الصراط المستقيم} مع الترقى الذي ذكره الشيخ أو العباس المرسي رضي الله عنه المتقدم، وإذا قرأ {صراط الذين أنعمت عليهم} استشعر، أي: أنعمت عليهم بالوصول والتمكين في معرفتك.

وقال الورتجبي: اهدنا مُرَادَكَ مِنَّا؛ لأن الصراط المستقيم ما أراد الحق من الخلق، من الصدق والإخلاص في عبوديته وخدمته. ثم قال: وقيل: اهدنا هُدَى العِيَان بعد البيان، لتستقيم لك حسب إرادتك. وقيل: اهدنا هُدَى مَنْ يكون منك مبدؤه ليكون إليك منتهاه. ثم قال: وقال بعضهم: اهدنا، أي: تَبَيَّنَّا على الطريق الذي لا اعوجاج فيه، منازل الذين أنعمت عليهم بالمعرفة والمحبة وحسن الأدب في الخدمة. ثم قال: وقال بعضهم: اهدنا، أي: تَبَيَّنَّا على الطريق الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام، وهو الطريق المستقيم والمنهاج القويم {صراط الذين أنعمت عليهم} أي: منازل الذين أنعمت عليهم بالمعرفة والمحبة وحسن الأدب في الخدمة. ثم قال: {غير المغضوب عليهم} يعني: المطرودين عن باب العبودية، {ولا الضالين} يعني المُفْلِسِينَ عن نفائس المعرفة. هـ.

قلت: والأحسن أن يقال: {غير المغضوب عليهم} هم الذين أَوْقَفَهُمْ عن السير اتباعَ الحظوظ والشهوات، فأوقعهم في مَهَاوِي العصيان والمخالفات، {ولا

الضالين { هم الذين حبسهم الجهل والتقليد، فلم تنفذ بصائرهم إلى خالص التوحيد، فنكصوا عن توحيد العيان إلى توحيد والبرهان، وهو ضلال عند أهل الشهود والعيان، ولو بلغ في الصلاح غاية الإمكان.

وقال في الإحياء: إذا قلت: { بسم الله الرحمن الرحيم } فأفهم أن الأمور كلها بالله، وأن المرادها هنا المسمى، وإذا كانت الأمور كلها بالله فلا جرم أن الحمد كله لله، ثم قال: وإذا قلت: { الرحمن الرحيم } فأحضر في قلبك أنواع لطفه لتفتح لك رحمته فينبعث به رجاؤك، ثم استشعر من قلبك التعظيم والخوف من قولك: { يوم الدين }. ثم قال: ثم جدد الإخلاص بقولك: { إياك نعبد }. وردد العجز والاحتياج والتبري من الحول والقوة بقولك: { وإياك نستعين }، ثم اطلب اسم حاجتك، وقل: { اهدنا الصراط المستقيم } الذي يسوقنا إلى جوارك ويفضي بنا إلى مرضاتك، وزده شرحاً وتفصيلاً وتأكيذاً، واستشهد بالذين أفاض عليهم نعم الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائعين واليهود والنصارى والصابئين. هـ. ملخصاً.

وقال القشيري: قوله تعالى: { اهدنا الصراط المستقيم } الأمر في هذه الآية مضمرة، أي: قولوا: اهدنا. والصراط المستقيم: طريق الحق، وهو ما عليه أهل التوحيد، أي: أرشدنا إلى الحق لئلا نتكل على وسائط المعاملات، فيقع على وجه التوحيد عبأؤ الظنون والحسابات لتكون دليلنا عليك، ثم قال: { صراط الذين أنعمت عليهم } أي: الواصلين بك إليك، ثم قال: { غير المغضوب عليهم } بنسيان التوفيق والتعامي عن رؤية التأيد، { ولا الضالين } عن شهود سابق الاختيار، وجريان تصاريف الأقدار. هـ.

## # سورة البقرة § #

# { الاما } #

{ الم }

وقد حارت العقول في رموز الحكماء، فكيف بالأنبياء؟ فكيف بالمرسلين؟ فكيف بسيد المرسلين؟، فكيف يطمع أحد في إدراك حقائق رموز رب العالمين؟! قال الصديق رضي الله عنه: (في كل كتاب سر، وسر القرآن فواتح السور). هـ. فمعرفة أسرار هذه الحروف لا يقف عليها إلا الصفوة من أكابر الأولياء. وكل واحد يلمع له على قدر صفاء شربه.

وأقرب ما فيها أنها أشياء أقسم الله بها لشرفها. فقيل: إنها مختصرة من أسمائه تعالى، فالألف من الله، واللام من اللطيف، والميم من مهيمن أو مجيد. وقيل: من أسماء نبيه صلى الله عليه وسلم فالميم مختصرة إما من المصطفى، وبدل عليه زيادة الصاد في

{ المص }

{ الأعراف: 1 }، أو من المرسل، وبدل عليه زيادة في الراء

{ المر }

{ الرعد: 1 } . و

{ الر }

{ الحجر: 1 } مختصرة من الرسول. فكأن الحق تعالى يقول: يا أيها المصطفى أو

يا أيها الرسول

{ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ }

{ الْبَقَرَة: 2 } أو هذا

{ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ }

{ الأعراف: 2 } أو غير ذلك، وبدل على هذا توجيه الخطاب إليه صلى الله عليه

وسلم بعد هذه الرموز. و

{ كهيعص }

{ مریم: 1 } مختصرة من الكافي والهادي والولي والعالم والصادق، و

{ طه }

{ طه: 1 } من طاهر، و

{ طس }

{ التمل: 1 } من يا طاهر يا سيد، ويا محمد في

{ جلسم }

{ الشعراء: 1 }، إلى غير ذلك.

وعند أهل الإشارة يقول الحق جلّ جلاله: ألف: أفرّد سبّك إلّي، انفراد الألف عن سائر الحروف، واللام: لئِنْ جوارحك لعبادتي، والميم: أقم معي بمحو رسومك وصفاتك، أزينك بصفاء الأنس والقرب مني. قاله الثعلبي.

قلت: والأظهر أنها حروف تشير للعوالم الثلاثة، فالألف لوحدة الذات في عالم الجبروت، واللام لظهور أسرارها في عالم الملكوت، والميم لسريان أمدادها في عالم الرحموت، والصاد لظهور تصرفها في عالم الملك. وكل حرف من هذه الرموز يدل على ظهور أثر الذات في عالم الشهادة، فالألف يشير إلى سريان

الوحدة في مظاهر الأكوان، واللام: يشير إلى فيضان أنوار الملكوت من بحر الجبروت، والميم يشير إلى تصرف الملك في عالم الملك، وكأن الحق تعالى يقول: هذا الكتاب الذي تتلوا يا محمد - هو فائض من بحر الجبروت إلى عالم الملكوت، ومن عالم الملكوت إلى الرحموت، ثم نزل به الروح الأمين إلى عالم الملك والشهادة، فلا ينبغي أن يرتاب فيه.  
#@ { دَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } #

{ دَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ... }

قلت: الرب: تحرك القلب واضطرابه بالشكوك والأوهام، وتقابلته الطمأنينة بالسكون إلى الحق على الدوام.

يقول الحق جل جلاله: يا أيها الرسول المصطفى والنبى المجتبى { دَلِكِ الْكِتَابُ } الذي أنزلناه عليه من جبروت قدسنا وملكوت عزنا { لَا رَيْبَ فِيهِ } أنه من عندنا. فمن ارتاب فيه، أو نسبه إلى غيرنا، فقد استحق البعد من ساحة رحمتنا، وحلت عليه شدائد نقمتنا، ومن تحقق به أنه من لدنا، وأمن بمن جاء به من عندنا، فقد استحق دخول حضرة قدسنا حتى يسمع منا ويتكلم بنا، فإذا أحببته كنت له، في يسمع، وبني يبصر، وبني يتكلم... الحديث. فيكون من الصديقين المقربين مع النبي والمرسلين، وكان في ذروة درجات المتقين، الذين يهتدون بهدي القرآن المبين، كما أشار إلى ذلك بقوله:

{ ... هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } قلت: { هدى } خبر عن مبتدأ مضمرة، أو مبتدأ بتقديم الخبر. أي: هو هاد للمتقين، أو فيه الهدى لهم. والهدى: هو الإرشاد والبيان، ومعناه: الدلالة الموصلة إلى الحق. والمتقي: من جعل بينه وبين مقت الله وقاية، وله ثلاث درجات:

\* حفظ الجوارح من المخالفات،

\* وحفظ القلوب من المساوئ والهفوات،

\* وحفظ السرائر من الوقوف مع المحسوسات،

فالأولى لمقام الإسلام، وإليه توجه الخطاب بقوله:

{ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ }

[التغابن: 16]، والثانية لمقام الإيمان، وإليه توجه الخطاب بقوله:

{ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ }

[المائدة: 100]، والثالثة لمقام الإحسان، وإليه توجه الخطاب بقوله:

{ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ }

[آل عمران: 102].

يقول الحق جل جلاله: { دَلِكِ الْكِتَابُ } الذي لا يقرب سياحته شك ولا ارتياب، هو عين الهداية لأهل التقى من ذوي الأبواب، فلا يزالون يترقون به في المقامات والأحوال حتى يسمعوه من الكبير المتعال، بلا واسطة تبليغ ولا إرسال، قد انمحت في حقهم الرسوم والأشكال، وهذه غاية الهداية، وتحقيق سابق العناية.

قال جعفر الصادق: (والله لقد تجلّى الله تعالى لخلقه في كلامه ولكن لا يشعرون).

وقال أيضاً - وقد سأله عن حالة لحقته في الصلاة حتى خرّ مغشياً عليه، فلما سُرّي عنه، قيل له في ذلك فقال: (ما زلت أردت الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته).

فدرجات القراءة ثلاث:

أدناها: أن يقرأ العبد كأنه يقرأ على الله تعالى واقفاً بين يديه، وهو ناظر له ومستمع منه، فيكون حاله السؤال والتملق والتضرّع والابتهاج.

والثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله تعالى يخاطبه بألفاظه، ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه الحياء والتعظيم، والإصغاء والفهم.

والثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته، بل يكون فائياً عن نفسه، غائباً في شهود ربه، لم يبق له عن نفسه إخبار ولا مع غير الله قرار.

فالأولى لأهل الفناء في الأفعال، والثانية لأهل الفناء في الصفات، والثالثة لأهل الفناء في شهود الذات، رضي الله عنهم، وحشرنا على مناهجهم... أمين.

#@ { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } #

قلت: هذه الأوصاف تتضمن ثلاثة أعمال، الأول: عمل قلبي وهو الإيمان، والثاني: عمل بدني، وهو الصلاة، والثالث: عمل مالي، وهو الإنفاق في سبيل الله، وهذه الأعمال هي أساس التقوى التي تدور عليها.

أما العمل القلبي: فهو الإيمان أولاً، والمعرفة ثانياً، فما دام العبد محجوباً بشهود نفسه، محصوراً في الأكوان وفي هيكل ذاته فهو مؤمن بالغيب، يؤمن بوجود الحق تعالى، وبما أخبر به من أمور الغيب، يستدل بوجود أثره عليه، فإذا فني عن نفسه وتلطفت دائرة حسه، وخرجت فكرته عن دائرة الأكوان، أفضى إلى الشهود والعيان، فصار الغيب عنده شهادة، والملك ملكوتاً، والمستقبل حالاً، والآتي واقعاً، وقد قلت ذلك:

فَلَا تَرْضَى بِغَيْرِ اللَّهِ جِبًّا وَكُنْ أَبَدًا بِعَشْقٍ وَاشْتِيَاقٍ  
تَرَى الْأَمْرَ الْمُعَيَّبَ ذَا عَيَانَ تَحْطَى بِالْوَصُولِ وَبِالْتَّلَاقِي  
وفي الحكم: " لو أشرق نور اليقين في قلبك لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها، ولرأيت بهجة الدنيا وكسوة الفناء ظاهرة عليها " وقال في التنوير: ولو انْهَتَكَ حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان، ولأشرق نور الإيقان فغطى وجود الأكوان. هـ.

وإنما اقتصر الحق تعالى على الإيمان بالغيب لأنه هو المكلف به؛ إذ هو الذي يطيقه جل العباد، بخلاف المعرفة الخاصة فلا يطيقها إلا الخصوص، والله تعالى أعلم.

وأما العمل البدني: فهو إقامة الصلاة، والمراد بإقامتها إتقان شروطها وأركانها وخشوعها، وحفظ السر فيها، قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: (كل موضع ذكر فيه المصلون في معرض المدح فإنها جاء لمن أقام الصلاة، إما بلفظ الإقامة، وإما بمعنى يرجع إليها، قال تعالى { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ } ، وقال تعالى: { أقم الصلاة } [الإسراء: 78]، { وَالْمُقِيمِ الصَّلَاةَ } [الحج: 35]، ولما ذكر المصلين بالغفلة قال: { قَوْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ } [الماعون: 4، 5] ولم يقل: فويل للمقيمين الصلاة).

وأما العمل المالي فهو الإنفاق في سبيل الله واجباً أو مندوباً، وهو من أفضل القربات، يقول الله - تبارك وتعالى: " يا ابن آدم أنفق، أنفق عليك " ، وفي حديث آخر: " أنفق ولا تحف من ذي العرش إقللاً " وقال صلى الله عليه وسلم: " إن في الجنة عرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها " ، قيل: لمن هي يا رسول الله؟ قال: " لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام " وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم: " إن الله - عز وجل - ليُدخل باللقمة من الخبز والقبضة من التمر ومثله ممّا ينتفع به المسكين ثلاثة، الجنة: رب البيت الأمر به، والزوجة تصلحه، والخادم الذي يناوله المسكين " وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم: " إن الصدقة لتسد سبعين باباً من السوء " @ وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم: " صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصله الرّجيم تزيد في العمر " .

الإشارة: يا من غرق في بحر الذات وتيار الصفات { ذلك الكتاب } الذي تسمع من أنوار ملكوتنا، وأسرار جبروتنا { لا ريب فيه } أنه من عندنا، فلا تسمعه من غيرها، { قَادًا قَرَاتَاهُ قَاتِبُ قُرْآنَهُ } [القيامة: 18]، فهو هاد لشهود ذاتنا، ومرشد للوصول إلى حضرتنا، لمن اتقى شهود غيرنا، وغرق في بحر وحدتنا، الذي يؤمن بغيب غيبنا، وأسرار جبروتنا، التي لا تحيط بها العلوم، ولا تسمو إلى نهايتها الأفكار والفهوم، الذي جمع بين مشاهدة الربوبية، والقيام بوظائف العبودية، إظهاراً لسر الحكمة بعد التحقق بشهود القدرة، فهو على صلته دائم، وقلبه في غيب الملكوت هائم، ينفق مما رزقه الله من أسرار العلوم ومخازن الفهوم، فهو دائماً ينفق من سعة علمه وأنوار فيضه، فلا جرم أنه على بينة من ربه.

ولمّا ذكر الحق تعالى من آمن من العرب، ذكر من آمن من أهل الكتاب.  
# @ { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَيَالْآخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ } #  
\* { أُولَئِكَ عَلِمَا هُدَىٰ مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } \*

قلت: الموصول مبتدأ، و { أولئك } خبره، أو عطف على { المتقين } ، وحذف المنزل عليه في جانب الكتب المتقدمة، فلم يُقَلْ: وما أنزل على من قبلك؛ إشارة إلى أن الإيمان بالكتب المتقدمة دون معرفة أعيان المنزل عليهم كاف، إلا من ورد تعيينه في الكتاب والسنة فلا بد من الإيمان به، أما القرآن العظيم فلا بد من الإيمان أنه منزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فمن اعتقد أنه منزل على غيره كالروافض فإنه كافر بإجماع، ولذلك ذكر المتعلق بقوله: { بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ } .

يقول الحق جل جلاله: { وَالَّذِينَ } يصدقون { بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ } يا محمد من الأخبار الغيبية والأحكام الشرعية، والأسرار الربانية والعلوم اللدنية { وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ } من الكتب السماوية، والأخبار القدسية، وهم { يُوقِنُونَ } بالبعث والحساب والرجوع إلينا والمآب، على نعت ما أخبرت به في كتابي وأخبار أنبيائي، { وَأُولَئِكَ } راكبون على مئذنة الهداية، مُسْتَعْلُونَ على محمل العناية، محفوفون بجيش النصر والرعاية، { وَأُولَئِكَ هُمْ } الظافرون بكل مطلوب، الناجون من كل مخوف ومرهوب، دون من عداهم ممن سبق له الخذلان، فلم يكن له إيمان ولا إيقان، فلا هداية له ولا نجاح، ولا نجاه له ولا فلاح، نسأل الله العصمة بتمنه وكرمه.

الإشارة: قلت: كأن الآية الأولى في الواصلين، والثانية في السائرين، لأن الأولين وصفهم بالإفناق من سعة علومهم، وهؤلاء وصفهم بالتصديق في قلوبهم، فإن داموا على السير كانوا مفلحين فائزين بما فاز به الأولون. فاهل الآية الأولى من أهل الشهود والعيان، وأهل الثانية من أهل التصديق والإيمان. أهل الأولى ذاقوا طعم الخصوصية، فقاموا بشهود الربوبية وآداب العبودية، وأهل الثانية صدقوا بنزول الخصوصية ودوامها، واستنشقوا شيئاً من روائح أسرارها وعلومها، فهم يوقنون بوجود الحقيقة، عالمون برسوم الطريقة، فلا جرم أنهم على الجادة وطريق الهداية، وهم مفلحون بالوصول إلى عين العناية. دون الفرقة الثالثة التي هي الإنكار موسومة، ومن نيل العناية محرومة، التي أشار إليها الحق تعالى.

#@ { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } # \*  
{ حَتَّمَّ اللَّهُ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ وَعَلَيْنَا سَمْعَهُمْ وَعَلَيْنَا أَبْصَارَهُمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }

قلت: { سواء } خبر مقدم، و { أنذرتهم } مبتدأ لسبك همزة التسوية، أي: الإنذار وعدمه سواء في حق هؤلاء الكفرة، والجملة خبر إن، و { غشاوة } مبتدأ، والجار قبله خبره، والغشاوة: ما يغشى الشيء ويغطيه، كنى به عن مانع قهرهم عن الإيمان.

يقول الحق جل جلاله: يا محمد { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا } بما أنزل إليك جهراً، وسبقت لهم مني الشقاوة سرّاً، لا ينفع فيهم الوعظ والإنذار، ولا البشارة والتذكير، فإنذارك وعدمه في حقهم سواء، لما سبق لهم مني الطرد والشقاء، فالتذكير في حقهم عناء، والغيبة عن أحوالهم راحة وهناء، لأنني ختمت على قلوبهم بطابع الكفران، فلا يهتدون إلى إسلام ولا إيمان، ومنعت أسماعهم أن تصغي إلى الوعظ والتذكير، فلا ينجح فيهم تخويف ولا تحذير، وغشيت أبصارهم بظلمة الحجاب فلا يبصرون الحق والصواب، قد أعددتهم لعذابي ونقمتي، وطردهم عن ساحة رحمتي ونعمتي.

وإنما أمرتك بإنذارهم لإقامة الحجة عليهم، وإنني وإن حكمت عليهم أنهم من أهل مخالفتي وعنادي؛ فإنني لا أظلم أحداً من خلقي وعبادي،  
{ قُلْ قَلِيلَ الْحُجَّةِ الْبَالِغَةُ قَلَوْ سَاءَ لَهَذَاكُمْ أَجْمَعِينَ }  
[الأنعام: 149]. فما ظلمتهم؛ لأنني بعثت الرسل مبشرين ومنذرين، ولكن ظلموا أنفسهم فكانوا هم الظالمين، فحكمتي اقتضت الإنذار، وقدرتي اقتضت القهر والإجبار، فالواجب عليك أيها العبد أن تكون لك عينان: عين تنظر لحكمتي وشريعتي فتتأدب، وعين تنظر لقدرتي وحقيقتي فتُسلم، وتكون بي الأمن والرهب، فلا تآمن مكرري وإن آمنتك، ولا تياس من حلمي وإن أبعدتك، فعلمي لا يحيط به محيط، إلا من هو بكل شيء محيط.

الإشارة: إن الذين أنكروا وجود الخصوصية، جحدوا أهل مشاهدة الربوبية من أهل التربية النبوية، لا ينفع فيهم الوعظ والتذكير، بما سبق لهم في علم الملك القدير، فسواء عليهم أنذرتهم وبال القطيعة والحجاب، أم لم تنذرهم؛ لعدم فتح الباب، قد ختم الله على قلوبهم بالعوائد والشهوات، أو حلاوة الزهد والطاعات، أو تحرير المسائل والمشكلات، وعلى سمع قلوبهم بالخواطر والغفلات، وجعل على أبصارهم غشاوة الحجاب، فلا يبصرون إلا المحسوسات، غائبون عن أسرار المعاني وأنوار التجليات، بخلاف قلوب العارفين، فإنها ترى من أسرار المعاني ما لا يرى للناظرين، وفي ذلك يقول الشاعر:

قلوبُ العارفين لها عُيُونٌ ترى ما لا يرى للناظرينا  
وَألسنةُ بأسرارٍ تُتَاجِي تَغِيْبُ عَنِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِيْنَا  
وَأجنحةُ تطيرُ بغير ريش إلى ملكوتِ ربِّ الْعَالَمِيْنَا  
فسبحان من حجب العالمين بصلاحهم عن مصلحهم، وحجب العلماء بعلمهم عن معلومهم، واختصَّ قوماً بنفوذ عزائمهم إلى مشاهدة ذات محبوبهم، فهم في رياض ملكوته ينتزهون، وفي بحار جبروته يسبحون،  
{ لِمِثْلِ هَذَا قَلْبِ الْعَامِلُونَ }  
[الصفات: 61].

ولما ذكر الحق - جلَّ جلاله - من أعلن بالإنكار، ذكر من أسرَّ بالجحد وأظهر الإقرار.

@# { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ } \* #  
{ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } \* { فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ }  
قلت: { من } موصوفة مبتدأ، والخبر مقدم، أي: ومن الناس ناس يقولون كذا، والمخادعة: إظهار خلاف ما يخفي من المكروه، وأصل الخدع: الإخفاء، ومنه المخدع للبيت الذي يخبأ فيه المتاع. وقيل: الفساد لأن المنافقين يفسدون إيمانهم بما يُخفون، وجملة { وما يشعرون } حالية، أي: غير شاعرين، والشعور: التفطن، وفعله من باب كَرَمَ وَتَصَرَّ. وليت شعري: أي: ليت فطنتي تدرك هذا، وجملة { في قلوبهم مرض } تعليلية للمخادعة، والمرض: الضعف والفتور، وهو هنا مرض القلوب بالشك والنفاق. والعياذ بالله.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وَمِنَ النَّاسِ } مَنْ هُمْ مَغْمُوصٌ عَلَيْهِمْ بِالنِّفَاقِ كِبَعْضِ الْيَهُودِ وَالْمَنَافِقِينَ، يَقُولُونَ بِالسُّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ، يَقُولُونَ: { آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا النَّبِيُّ آمَنَّا بِالَّذِينَ آمَنُوا } وَمَا هُمْ فِي عِدَادِ الْمُؤْمِنِينَ، { يُخَادِعُونَ } بِزَعْمِهِمْ { إِلَهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا } بِمَا يَظْهَرُونَ مِنَ الْإِيمَانِ، { وَمَا يَخْدَعُونَ } فِي الْحَقِيقَةِ { إِلَّا أَنْفُسَهُمْ }؛ لِأَنَّ وَبِالْخَدَاعِ رَاجِعَ إِلَيْهِمْ، { وَمَا يَسْتَعْرُونَ } أَنْ خَدَاعَهُمْ وَبِالْخَدَاعِ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا حَصَلَتْ لَهُمْ هَذِهِ الْمَخَادَعَةُ لِأَنَّ { فِي قُلُوبِهِمْ } مَرَضًا مِنَ الشُّكِّ وَالْحَسَدِ، فَقُلُوبُهُمْ مَذْبُذِبَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ مَغْمُومَةٌ، { فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا } عَلَى مَرَضِهِمْ بِمَا يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَفْضَحُهُمْ، { وَلَهُمْ } فِي الْآخِرَةِ - إِذَا قَدِمُوا عَلَى اللَّهِ - { عَذَابٌ } مُوجِعٌ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ أَوْ كَذِبِهِمْ عَلَى اللَّهِ. هَذَا مُضَمَّنُ الْآيَةِ.

افتتح الحقّ - جلّ جلاله - بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، ثم ثنى بالكافرين الذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً، ثم ثلث بالمنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وهم أخبت الكفرة؛ لأنهم خلطوا بالكفر استهزاء وخداعاً، ولذلك كانوا في الدرك الأسفل من النار.

الإشارة: ومن الناس من يترامى بالدعوى على الخصوصية، ويدعي تحقيق مشاهدة الربوبية، وهو في الدرك الأسفل من العمومية، يظهر خلوص الإيمان وتحقيق العرفان، وهو في أودية الشكوك والخواطر حيران، وفي فيافي القطيعة والفرق ظمان، لسانه منطلق بالدعوى، وقلبه خارب من الهدى، يخادع الله بالرضا عن عيوبه ومساوئه، ويخادع المسلمين بتزيين ظاهره، وبباطنه معمور بحظوظه ومهاويه، ينزى بزِيِّ العارفين ويتعامل معاملة الجاهلين، ويصدق عليه قول القائل:

أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ وَأَرَى نِسَاءَ الْحَيِّ عَيْرَ نِسَائِهَا  
وما يخادع في الحقيقة إلا نفسه، حيث حرّمها الوصول، وتركها في أودية الأكوام تجول، قلبه بمرض الفرق والقطعية سقيم، وهو يظن أنه في عداد من يأتي الله بقلب سليم، فزاده الله مرضاً على مرضه حيث رضي بسقمه وعيبه، وله عذاب الحرص والتعب في ضيق الحجاب والنصب بسبب كذبه على الله، وإنكاره على أولياء الله، فجزاؤه البعد والخذلان، وسوء العاقبة والحرمان، عائداً بالله من المكر والطغيان.

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ } \* { أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَا كِنَ لَا يَشْعُرُونَ }

قلت: { إذا } ظرف خافض لشرطه منصوب بجوابه، أي: قالوا نحن مصلحون، وقت قول القائل لهم: لا تفسدوا، والجملة بيان وتقرير لخداعهم، أو معطوفة على { مَنْ يَقُولُ آمَنَّا } [البقرة: 8]، أي: ومن الناس فرقة إذا قيل لهم: لا تفسدوا، قالوا: إنما نحن مصلحون.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وَإِذَا قِيلَ } لَهُؤْلَاءِ الْمَنَافِقِينَ: { لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ } بِالْمَعَاصِي وَالتَّعْوِيقِ عَنِ الْإِيمَانِ، وَإِعْرَاءِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالطَّغْيَانِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، وَتَهْيِيجِ الْحُرُوبِ وَالفِتَنِ، وَإِظْهَارِ الْهَرَجِ وَالْمَرْجِ وَالْمَحَنِ، وَإِفْشَاءِ أَسْرَارِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى أَعْدَائِهِمُ الْكَافِرِينَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى فِسَادِ النِّسْبَةِ، وَقَطْعِ مَوَادِّ الْإِنْعَامِ، { قَالُوا } فِي جَوَابِهِمُ الْفَاسِدِ: { إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ } فِي ذَلِكَ، فَلَا تَصِحُّ

مخاطبتنا بذلك، فإن من شأننا الإصلاح والإرشاد، وحالنا خالص من شوائب الفساد، قال تعالى: { أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ } هنالك، ولكن لا شعور لهم بذلك.

قلت: فردّ الله ما ادعوه من الانتظام في سلك المصلحين بأقبح رد وأبلغه، من وجوه الاستئناف الذي في الجملة، والاستفتاح بالتنبيه، والتأكيد بأن وضمير الفعل، وتعريف الخبر، والتعبير بنفي الشعور، إذ لو شعروا أدنى شعور لتحققوا أنهم مفسدون.

وهذه الآية عامة لكل من اشتغل بما لا يعنيه، وعوق عن طريق الخصوص، ففيه شعبة من النفاق، وفي صحيح البخاري: " تَلَاثٌ مِنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُتَافِقًا خَالِصًا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ ".

الإشارة: وإذ قيل لمن يشتغل بالتعويق عن طريق الله والإنكار على أولياء الله: أقصر من هذا الإفساد، وارجع عن هذا الغي والعناد، فقد ظهرت معالم الإرشاد لأهل المحبة والوداد. قال: إنما أنا مصلح ناصح، وفي أحوالي كلها صالح، يقول له الحق جلّ جلاله: بل أفسدت قلوب عبادي، ورددتهم عن طريق محبتي وودادي، وعوقتهم عن دخول حضرتي، وحرمتهم شهود ذاتي وصفاتي، سددت بابي في وجه أحابي، آيستهم من وجود التربية، وتحكمت على القدرة الأزلية، ولكنك لا تشعر بما أنت فيه من البلية.

ولقد صدق من سبقت له العناية، وأتحف بالرعاية والهداية، حيث يقول:

فَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْإِشْرَاقِ كَانَتْ وَتَبَقَى مَا الْوُجُودُ بَاقٍ  
وقال أيضاً:

وَأَنْكَرُوهُ مَلَأَ عَوَامٌ لَمْ يَفْهَمُوا مَفْصُودَهُ فَهَامُوا  
فُتِبَ أَيُّهَا الْمَذْكَرُ قَبْلَ الْفَوَاتِ، وَاطْلُبْ مِنْ يَأْخُذُ بِيَدِكَ قَبْلَ الْمَمَاتِ، لِئَلَّا تَلْقَى اللَّهَ  
بِقَلْبٍ سَقِيمٍ، فَتَكُونَ فِي الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ مِنْ عَذَابِهِ الْأَلِيمِ، فَسَبَبُ الْعَذَابِ وَجُودِ  
الْحِجَابِ، وَإِتْمَامِ النِّعَمِ النَّظَرُ لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، مَنْحَنَا اللَّهُ مِنْهُ الْحِظَّ الْأَوْفَى فِي  
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. آمِينَ.  
@# { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَأُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ  
هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ } #

قلت: الكاف من { كَمَا آمَنَ } صفة لمصدر محذوف، و { ما } مصدرية. أي: إذا قيل لهم آمنوا إيماناً خالصاً من النفاق مثل إيمان المسلمين، أو من أسلم من جلدتهم، والسفه: خفة وطيش في العقل، يقال: ثوب سفه، أي: خفيف.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وَإِذَا قِيلَ } لهؤلاء المنافقين من المشركين واليهود: اتركوا ما أنتم عليه من الكفر والجحود، وراقبوا الملك المعبود، وطهروا قلوبكم من الكفر والنفاق، وأقصروا مما أنتم فيه من العباد والشقاق و { آمنوا } إيماناً خالصاً مثل إيمان المسلمين، لتكونوا معهم في أعلى عليين، " مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا حُشِرَ مَعَهُمْ ". " الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ " ، { قَالُوا } مترجمين عما في قلوبهم من الكفر والنفاق: { أُوؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ } الذين لا عقل لهم، إذ جُلبهم فقراء وموالي.

قال الحق تعالى في الرد عليهم وتقيح رأيهم: { أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ } لا غيرهم، حيث تركوا ما هو السبب في الفوز العظيم بالنعيم المقيم، وارتكبوا ما استوجبوا به الخلود في الدرك الأسفل من الجحيم { وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ } ،  
[الشعراء: 227]، عبّر الحق في هذه الآية بـ { لا يعلمون } وفي الأولى بـ { لَا يَشْعُرُونَ }  
[الأعراف: 95]؛ لأن الفساد في الأرض يدرك بأدنى شعور، بخلاف الإيمان والتميز بين الحق والباطل؛ فيحتاج إلى زيادة تفكير واكتساب علم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وإذا قيل لأهل الإنكار على أهل الخصوصية، القاصدين مشاهدة عظمة الربوبية، قد تجردوا عن لباس العز والاشتهار، ولبسوا أطمار الذل والافتقار، آمنوا بطريق هؤلاء المخصوصين، وادخلوا معهم كي تكونوا من المقربين. قالوا: { أنؤمن كما آمن السفهاء } ونترك ما نحن عليه من العز والكبرياء، قال الله تعالى في تسفيه رأيهم وتقيح شأنهم: { أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ }؛ حيث تعززوا بعز يفنى، وتركوا العز الذي لا يفنى، قال الشاعر:

تَذَلُّ لِمَنْ تَهْوَى لِتَكْسِبَ عِزَّهُ فَكَمْ عِزَّةٌ قَدْ تَالَهَا الْمَرْءُ بِالذُّلِّ  
إِذَا كَانَ مِنْ تَهْوَى عَزِيزًا، وَلَمْ تَكُنْ دَلِيلًا لَهُ، قَافِرَ السَّلَامِ عَلَى الْوَصْلِ  
فلو علموا ما في طيِّ الذل من العز، وما في طيِّ الفقر من الغنى، لجالدوا عليه بالسيوف، ولكن لا يعلمون. @# { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَيْنَا سَبَّأْتِنَاهُمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ } \*# { اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } \* { أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الصَّلَاةَ بِالْهَدَانَا فَمَا رَحَبَتْ تَجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ }  
رَبِحَتْ تَجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ }

قلت: اللقاء: المصادفة بلا قصد، والخلو بالشيء أو معه: الانفراد به، ضمنه هنا معنى رجوع، ولذلك تعدى بالي، و(الشیطان) قِيَعَالٌ، من شَطَنَ، إذا بعد، أو قَعْلَانٌ من شاط، إذا بطل، والاستهزاء بالشيء: الاستخفاف بحقه، والعمه في البصيرة كالعمى في البصر.

يقول الحق جل جلاله: في وصف المنافقين تقريراً لنفاقهم: إنهم كانوا { إِذَا لَقُوا } الصحابة أظهروا الإيمان، وإذا رجعوا { إِلَى سَبَّأْتِنَاهُمْ } أي: كبرائهم المتمردين في الكفر والطغيان، { قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ } لم نخرج عن ديننا { إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ } بهم، ومستسخرون بشأنهم، نزلت في عبد الله بن أبي - رأس المنافقين - كان إذا لقي سعداً قال: نعم الدين دين محمد، وإذا خلا برؤساء قومه من أهل الكفر، شدوا أيديكم على دين آبائكم.

وخرج ذات يوم مع أصحابه فاستقبلهم نفر من الصحابة - رضوان الله عليهم - فقال عبد الله لأصحابه: انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم، فأخذ بيد أبي بكر رضي الله عنه فقال: مرحباً بالصدِّيق سيد بني تيم، وشيخ الإسلام، وثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار، الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أخذ بيد عمر، فقال: مرحباً بسيد بني عدي بن كعب، الفاروق، القوي في دين الله، الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أخذ

بيد عَلِيٍّ؛ فقال: مرحباً بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخِيتِه، سيد بني هاشم، ما وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عليٌّ رضي الله عنه: يا عبد الله، اتق الله ولا تنافق، فإن المنافقين شرُّ خليقة الله، فقال عبد الله: مهلاً يا أبا الحسن، أتى تقول هذا؟ والله إن إيماننا كإيمانكم، وتصديقنا كتصديقكم، فنزلت الآية.

ثم ردّ الله تعالى عليهم فقال: { اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ } أي: يفعل بهم فعل المستهزئ؛ بأن يفتح لهم باباً إلى الجنة وهم في النار، ويطلع المؤمنين عليهم، فيقول لهم: ادخلوا الجنة، فإذا جاءوا يستبقون إليها وطمعوا في الدخول، سُدَّتْ عليهم ورجعوا إلى النار،  
{ قَالِيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَصْحَكُونَ }  
[المطففين: 34] الآية.

{ وَيَمْدُهُمْ } أي: يمهلهم { في } كفرهم، و { طُعْيَانِهِمْ } يتحiron إلى يوم يبعثون؛ لأنهم { اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى } أي: استبدلوا بها رأس مالهم، فضلاً عن الربح، إذ الإيمان رأس المال، وأعمال الطاعات ربح، فإذا ذهب الرأس فلا ربح؛ ولذلك قال تعالى: { قَمَّارِيحًا تَبَّحَرْتُمْ } ، بل خسرت صفقتهم، { وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ } إلى أسباب الربح أبداً، لاستبدالهم الهدى - التي هي رأس المال - بالضلالة - التي هي سبب الخسران. وبالله التوفيق.

وها هنا استعارات وبلاغات يطول سردها، إذ مرادنا تربية اليقين بكلام رب العالمين.

الإشارة: الناس في طريق الخصوص على أربعة أقسام:

قسم: سبقت لهم من الله العناية، وهبت عليهم ريح الهداية: فصدقوا ودخلوا فيها، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، فَتَجَرُّوا فيه وريحوا، فعوضهم الله تعالى جنة المعارف، يتبوؤون منها حيث شاءوا، فإذا قدموا عليه أدخلهم جنة الزخارف، يسرحون فيها حيث شاءوا، وأتحفهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم.  
@وقسم: سبقت لهم من الله الهداية، وحفتهم الرعاية، فصدقوا وأقروا، ولكنهم ضعفوا عن الدخول، ولم تتعلق همتهم بالوصول، فهيقوا في ضعفاء المسلمين { لَيْسَ عَلَيَّ الضُّعْفَاءُ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا تَصَحَّوْا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ... } [التوبة: 91].

وقسم: أنكروا وأظهروا وجحدوا وكفروا، فتجروا وخسروا، " مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ ".

وقسم رابع: هم مذذبون بين ذلك إذا لقوا أهل الخصوصية قالوا: آمنا وصدقنا فأنتم على الجادة، وإذا رجعوا إلى أهل التمرد من المنكرين - طعنوا وجحدوا، وقالوا: إنما كنا بهم مستهزئين، { الله يستهزئ بهم } بما يظهر لهم من صور الكرامات والاستدراجات، ويمدهم في تعاطي العوائد والشهوات، وطلب العلو والرئاسات، متحيرين في مهامه الخواطر والغفلات، { أولئك الذي اشتروا الضلالة } عن طريق الخصوص من أهل الوصول، { بالهدى } الذي كان بيدهم، لو حصل

لهم التصديق والدخول، فما ربحوا في تجارتهم، وما كانوا مهتدين إلى بلوغ المأمول. قال بعض العارفين: (التصديق بطريقتنا ولاية، والدخول فيها عناية، والانتقاد عليها جنابة). وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

#@ { مَتْلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ } \*# { صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ }

قلت: { استوقد } يحتمل أن تكون للطلب، أو زائدة بمعنى أوقد، و { لما } شرطية، و { ذهب } جواب، وإذا كان لفظ الموصول مفرداً واقعاً على جماعة، يصح في الضمير مراعاة لفظه فيفرد، ومعناه فيجمع، فأفرد في الآية أولاً، وجمع ثانياً، ويقال: أضاء بضياء إضاءة، وصاء يصوء صؤءاً.

يقول الحق جلّ جلاله: مثل هؤلاء المنافقين من اليهود { كَمَثَلِ } رجل في ظلمة، تائه في الطريق، فاستوقد ناراً ليبصر طريقاً، فاستوقد ناراً ليبصر طريق القصد { فَلَمَّا } اشتعلت و { أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ } فأبصر الطريق، وظهرت له معالم التحقيق، أطفأ الله تلك النار وأذهب نورها، ولم يبق إلا جمرها وحزها. كذلك اليهود كانوا في ظلمة الكفر والمعاصي ينتظرون ظهور نور النبي صلى الله عليه وسلم ويطلبونه، فلما قدم عليهم، وأشرقت أنواره بين أيديهم كفروا به، فأذهب الله عنهم نوره، { وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ } الكفر والشك والنفاق، { لَا يُبْصِرُونَ } ولا يهتدون، { صُمُّ } عن سماع الحق، { بَكْمٌ } عن النطق به { عُمِّي } عن رؤية نوره، { فَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ } عن عيهم، ولا يقصرون عن ضلالتهم.

الإشارة: مَثَلٌ مَنْ كَانَ فِي ظُلُمَاتِ الْحِجَابِ قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ الشُّكُوكُ وَالْإِرْتِيَابُ، وَهُوَ يَطْلُبُ مِنْ يَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيَهْدِيهِ إِلَى طَرِيقِ رَشْدِهِ، فَلَمَّا ظَهَرَتْ أَنْوَارُ الْعَارِفِينَ، وَأَحْدَقَتْ بِهِ أَسْرَارُ الْمُقَرَّبِينَ، حَتَّى أَشْرَقَتْ مِنْ نُورِهِمْ أَقْطَارُ الْبِلَادِ، وَخَيَّبَتْ بِهِمْ جَلَّ الْعِبَادِ، أَنْكَرَهُمْ وَبَعَدَ مِنْهُمْ، فَتَصَامَمَ عَنْ سَمَاعِ وَعَظْمِهِمْ، وَتَبَاكَمَ عَنْ تَصَدِيقِهِمْ، وَعَمِيَ عَنِ شَهُودِ خُصُوصِيَّتِهِمْ، فَلَا رَجُوعَ لَهُ عَنِ حُطُوطِهِ وَهَوَاهِ، وَلَا انْزِجَارَ لَهُ عَنِ الْعُكُوفِ عَلَيَّ مُتَابَعَةِ دُنْيَاهِ، مِثْلَهُ كَمَنْ كَانَ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ ضَالًّا عَنِ الطَّرِيقِ، فَاسْتَوْقَدَ نَارًا لِتُظْهِرَ لَهُ الطَّرِيقَ، فَلَمَّا اشْتَعَلَتْ وَأَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ أَذْهَبَ اللَّهُ نُورَهَا، وَبَقِيَ جَمْرُهَا وَحَزُّهَا، وَهَذِهِ سَنَةٌ مَاضِيَةٌ: لَا يَنْتَفِعُ بِالْوَلِيِّ إِلَّا مَنْ كَانَ بَعِيدًا مِنْهُ. وَفِي الْحَدِيثِ: " أَرْهَدُ النَّاسَ فِي الْعَالَمِ جِيرَانُهُ " ، وَقَدْ مَثَّلُوا الْوَلِيَّ بِالنَّهْرِ الْجَارِي كَمَا يُعَدُّ جَرْبُهُ عَمَّ الْإِنْتِفَاعُ بِهِ، وَمَثَلُوهُ أَيْضًا بِالنَّخْلَةِ لَا تُظِلُّ إِلَّا عَنِ بَعْدِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

#@ { أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آدَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حُدُورِ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ } \*# { يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مِّسْنُورٌ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ سَاءَ اللَّهُ لَدَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

قلت: { أو } للتنوع، أو بمعنى الواو، و { الصيب } المطر، قَيْعِلٌ، من صاب المطر إذا نزل، وهو على حذف مضاف، أي: أو كذي صيب، وأصله: صيوب، كسيد، قلبت الواو ياء وأدغمت، ولا يوجد هذا إلا في المعتل كميث وهين وضيق وطيب.

و { الرعد } : الصوت الذي يخرج من السحاب، و { البرق } : النور الذي يخرج منه. قال ابن عزيز: رُوِيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْشِئُ السَّحَابَ فَيَنْطِقُ أَحْسَنَ النَّاطِقِ، وَتَضْحَكُ أَحْسَنُ الضَّحْكِ، فَيَنْطِقُهَا الرَّعْدُ، وَتَضْحَكُهَا الْبَرْقُ " وقال ابن عباس: " الرَّعْدُ مَلَكٌ يَسُوقُ السَّحَابَ، وَالْبَرْقُ سَوَّطٌ مِنْ نُورٍ يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابُ. هـ. والصواعق: قطعة من نار تسقط من المخراق الذي بيد سائق السحاب، وقيل: تسقط من نار بين السماء والأرض، والله تعالى أعلم.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: ومثل المنافقين أيضاً كأصحاب مطر غزير { فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ } وهدير أصابهم في ليلة مظلمة وقفراء مُذْهِمَةٌ. فيه { بَرْقٌ } يلمع، وصاعقة تقمع، إذا ضرب الرعد وعظم صوته جعلوا { أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ } من الهول والخوف حذراً من موت أنفسهم، وقد ماتت أرواحهم وقلوبهم، وإذا ضرب البرق كاد { أَنْ يَخْطِفَ أَبْصَارَهُمْ } ، فإذا لمع أصرخوا الطريق، و { مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا } متحيرين حائدين عن عين التحقيق، { وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ } [البُرُوج: 20]. { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ } بصوت ذلك الرعد، { وَأَبْصَارِهِمْ } بلمعان ذلك البرق، { إِنْ أَرَادَ اللَّهُ عَلَى كَلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } لا يعجزه شيء.

هذا مثلهم في تحيرهم واضطرابهم، فيحتمل أن يكون من التشبيه المركب، وهو تشبيه الجملة بالجملة، أو من المقصّل، فيكون المطر مثلاً للقرآن، وفيه ذكر الكفر والنفاق المُشَبَّهِينَ بِالظُّلُمَاتِ، والوعد عليه والزجر المشبّه بالرعد، والحجج الباهرة التي تكاد أحياناً تبهرهم المشبهة بالبرق، وتخوفهم وروعهم هو جعل أصابعهم في آذانهم، لئلا يسمعون فيميلوا إلى الإيمان، وقصّح نفاقهم وتكاليّف الشرع التي يكرهونها هي الصواعق. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أهل الخصوصية إذا ظهروا بين العموم بأحوال غريبة وعلوم وهّبية، وأسرار ربانية وأذكار نورانية، دهشوا منهم وتحيروا في أمرهم، وخافوا على أنفسهم، فإذا سمعوا منهم علوماً لدنية وأسراراً ربانية فرّوا منها، وجعلوا أصابعهم في آذانهم، خوفاً على أنفسهم أن تفارق عوائدها وهواها، وإذا خاصمهم أحد من العموم أجموه بالحجة، فتكاد تلك الحجة تخطفه إلى الحضرة، كلما لمع له شيء من الحق مشى إلى حضرته، وإذا كرت عليه الخصوم والخواطر، وأظلم عليه الحال، وقف في الباب حيران، ولو شاء الله لذهب بعقله وسمعه وبصره، فيبصر به إلى حضرته. من استغرب أن ينقذه الله من شهوته، وأن يخرج من وجود غفلته، فقد استعجز القدرة الإلهية { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا }

@[الكهف: 45].

فالصيّب الذي نزل من السماء كناية عن الواردات والأحوال التي ترد على قلوب العارفين، ويظهر أثرها على جوارحهم، والظلمات التي فيها كناية عن اختفاء بعضها عن أهل الشريعة فينكرونها، والرعد كناية عن اللهج بذكر الله جهراً في المحافل والحلق، والبرق كناية عن العلوم الغريبة التي ينطقون بها والحجج التي يحتجون بها على الخصوم، فإذا سمعها العوام اشمازت قلوبهم عن قبولها، فإذا

وقع منهم إنصاف تحققوا صحتها فمالوا إلى جهتها، ومَسَّوْا إلى ناحيتها، فإذا كَثُرَتْ عليهم الخصوم قاموا منكربين، ولو شاء ربك لهدى الناس جميعاً { وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ } [هُود: 118].

ولما ذكر الحق من تخلق بالإيمان ظاهراً وباطناً، ومن تحلَّى به كذلك، ومن أخفى الكفر وأظهر الإيمان، دعا الكل إلى توحيدهِ وعبادته.

#@ { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَيْنَا عَبِيدًا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ لَكُمْ آيَاتُهَا وَمِنْهَا مَنْ يَشْرِكُ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَيْكُمْ وَمَنْ يَبْتَغِ الْكُفْرَ مِنْكُمْ فَأْتُوا بِمَا تَدْعُونَ } \* { وَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } \* { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } \* { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزِقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأْتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مِثْلِهَا وَمِنْهَا زُرْقًا وَوَقُّوهَا } \* { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَيْنَا عَبِيدًا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ لَكُمْ آيَاتُهَا وَمِنْهَا مَنْ يَشْرِكُ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَيْكُمْ وَمَنْ يَبْتَغِ الْكُفْرَ مِنْكُمْ فَأْتُوا بِمَا تَدْعُونَ } \* { وَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } \* { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } \* { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزِقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأْتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مِثْلِهَا وَمِنْهَا زُرْقًا وَوَقُّوهَا } \* { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَيْنَا عَبِيدًا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ لَكُمْ آيَاتُهَا وَمِنْهَا مَنْ يَشْرِكُ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَيْكُمْ وَمَنْ يَبْتَغِ الْكُفْرَ مِنْكُمْ فَأْتُوا بِمَا تَدْعُونَ } \* { وَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } \* { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } \* { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزِقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأْتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مِثْلِهَا وَمِنْهَا زُرْقًا وَوَقُّوهَا } \*

فإن قلت: الرب في القرآن قد وقع من الكفار قطعاً، فكيف عبر بان الدالة على الشك والتردد؟

قلت: { إن } جازمة للفظ الشرط أو محله، موضوعة للشك في الشرط. و " إذا " لا تجزم في اللفظ، وتدل على الجزم في المعنى، وفي ذلك يقول القائل:

إنا إن شككت وجدثموني جازماً وإذا جزمك فإنني لم أجزم  
فإن قلت: الرب في القرآن قد وقع من الكفار قطعاً، فكيف عبر بان الدالة على الشك والتردد؟ قلت: لما كان ريبهم واقعاً في غير محله - إذ لو تأملوا أدنى تأمل لزال ريبهم لوضوح الأمر وسطوع البرهان - كان ريبهم كأنه مشكوك فيه ومتردد في وقوعه، و(الشهداء) جمع شهيد بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة، أو الناصر، أطلق على الأصنام؛ لأنهم يزعمون أنها تشهد لهم، ومعنى (دون): أدنى مكان من الشيء، ثم استعير للرتب فقليل: زيد دون عمرو؛ أي: في الشرف، ثم اتسع فيه فاستعير لكل تجاوز حد إلى حد، وتخطي أمر إلى آخر.

يقول الحق جل جلاله: { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَيْنَا عَبِيدًا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ لَكُمْ آيَاتُهَا وَمِنْهَا مَنْ يَشْرِكُ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَيْكُمْ وَمَنْ يَبْتَغِ الْكُفْرَ مِنْكُمْ فَأْتُوا بِمَا تَدْعُونَ } \* { وَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } \* { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } \* { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزِقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأْتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مِثْلِهَا وَمِنْهَا زُرْقًا وَوَقُّوهَا } \* { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَيْنَا عَبِيدًا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ لَكُمْ آيَاتُهَا وَمِنْهَا مَنْ يَشْرِكُ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَيْكُمْ وَمَنْ يَبْتَغِ الْكُفْرَ مِنْكُمْ فَأْتُوا بِمَا تَدْعُونَ } \* { وَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } \* { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } \* { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزِقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأْتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مِثْلِهَا وَمِنْهَا زُرْقًا وَوَقُّوهَا } \*

{ وَبَشِّرِ } يا محمد ويا من يصلح منه التبشير { الَّذِينَ آمَنُوا } بالله ورسوله، { وَعَمِلُوا } ما كلفوا به من الأعمال { الصَّالِحَاتِ } التي هي جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ { أي: من تحت قصورها، وهي أنهار من ماء، وأنهار من عسل، وأنهار من لبن، وأنهار من خمر لذة للشاربين. } { كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزِقُوا } أي:

صنفًا، { قَالُوا هَذَا الَّذِينَ رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ } في دار الدنيا، فإن الطباع تميل إلى المؤلف، فالصفة متفقة والطعم مختلف. أو في الجنة، قيل: هذا لما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: " والذي نفس محمد بيده إن الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هي وأصله إلى جوفه حتى يبدل الله تعالى مكانها مثلها " ، فلعلهم إذا رأوها على الهيئة الأولى قالوا ذلك، لفرط استغرابهم، وتبجحهم بما وجدوا من التفاوت العظيم في اللذة والتشابه البليغ في الصورة، { وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ } أي: حور { مُطَهَّرَةٌ } من الحيض، وسائر الأدناس، ومن الأخلاق المذمومة، والشيم الذميمة، { وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }؛ فإن النعيم إذا كان يعقبه الفناء تنعص على صاحبه، كما قال الشاعر:

@ لا خير في العيش ما دامت مُنْعَصَةً لذائمه بآثار الموت والهَرَمِ  
الإشارة: وإن كنتم يا معشر العوام في شك مما خصنا به ولينا من الأنوار، وما أنزلنا على قلبه من المعارف والأسرار، وما ظهر عليه من البهجة والأنوار، وما اهتدى على يديه من الصالحين والأبرار، فأتوا أنتم بشيء من ذلك، وانتصروا بما قدرتم من دون إله إن كنتم صادقين في المعارضة، قال القشيري: وكما أن كيد الكافرين يَصْمَجُلُ في مقابلة معجزات الرسول، فكذلك دعاوى المُلِيسين تتلاشى عند ظهور أنوار الصديقين. هـ.

فإن لم تفعلوا ما ذكرنا من المعارضة، ولن تقدروا على ذلك أبدًا، فأذعنوا، وأخضعوا، وأنقوا نار القطيعة والحطوط، والطمع والهلع، التي مادتها النفوس والفلوس؛ إذ بهما هلك من هلك وفاز من فاز؛ أعدت تلك النار للمنكرين الخصوصية، الجاحدين لوجود التربية النبوية.

ويشّر الصديقين بوجود الخصوصية، المنقادين لأهلها، أن لهم جنات المعارف في الدنيا، وجنات الزخارف في الآخرة، تجري من تحت قلوب أهلها أنوار العلوم والمعارف، فإذا كشف لهم يوم القيامة عن أسرار ذاته، قالوا: هذا الذي عرفناه من قبل في دار الدنيا، إذ الوجود واحد والمعرفة متفاوتة، وأتوا بأرزاق المعارف متشابهة؛ لأن مَنْ عَرَفَهُ في الدنيا عرفه في الآخرة، ومَنْ أنكره هنا أنكره يوم القيامة، إلا في وقت مخصوص على وجه مخصوص، ولهم في جنات المعارف عرائس المعارف والكشوفات، مطهرات من أدناس الحس وعبث الهوى والشهوات، وهم بعد تمكنهم من شهود الذات، خالدون في عُشِّ الحضرة، فيها يسكنون وإليها ياوون.

وقال القشيري: كما أن أهل الجنة يجدد لهم النعيم في وقت، فالثاني عندهم على ما يظنون كالأول، فإذا ذاقوه وجدوه غير ما تقدم، كذلك أهل الحقائق: أحوالهم في الزيادة أبدًا، فإذا رقي أحدهم عن محله، توهم أن الذي سيلقاه في هذا النفس مثل ما تقدم، فإذا ذاقه وجده فوق ذلك بأضعاف، كما قال قائلهم:

ما زلتُ أنزلُ مِنْ وِدَائِكَ مَنزِلًا تَتَحَيَّرُ الْأَلْبَابُ عِنْدَ نُزُولِهِ  
ولمّا ضرب الله الأمثال في القرآن للمنافقين وغيرهم تكلم في ذلك بعض الكفار والملحدّين.

@# { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَّا قَوْحَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْقَاسِقِينَ } \*# { الَّذِينَ يَنْقُضُونَ

بَعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ  
أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ {

قلت: الحياء: حُلُق كَرِيم يَمْنَعُ صَاحِبَهُ مِنْ ارْتِكَابِ مَا يَغَابُ بِهِ، وَفِي الْحَدِيثِ: " إِنْ  
اللَّهُ حَيِّيٌّ كَرِيمٌ " ، و { مثلاً } مفعول، و { ما } نكرة، صفته، و { بعوضة } بدل،  
والبعوضة: الذباب. وفي الحديث: " لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تُسَاوِي عِنْدَ اللَّهِ حَتَّاحَ بَعُوضَةٍ  
مَا سَقَى الْكَافِرَ مِنْهَا جَزَعَةً مَاءٍ " ، وقيل: صِعَارُ البَقِّ، أي: إِنْ اللَّهُ لَا يَتْرُكُ أَنْ  
يَضْرِبَ مَثَلًا - أَيِّ مَثَلٍ كَانَ - بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا. أو { بعوضة } مفعول أول، و  
{ مثلاً } مفعول ثانٍ، من باب جعل، و { ماذا } إما مبتدأ وخبر، على أن { ذا }  
موصولة، أو مفعولة بأراد على أنها مركبة، و { مثلاً } حال أو تمييز. والفسق:  
الخروج، يقال: فسقت الرطوبة إذا خرجت عن قشرها.

يقوله الحقُّ جلَّ جلاله: { إِنْ اللَّهُ } لا يترك ترك المستحي { أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا }  
بالخسيس والكبير كالذباب والعنكبوت وغير ذلك. فأما المؤمنون فيتفقون { أَنَّهُ  
الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ } ، وحكمته: إبراز المعاني اللطيفة في قوالب المحسوسات  
ليسهل الفهم، وأما الكفار فيعترضون ويقولون: { مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ } بهذه الأمثال؟  
فإن الله منزه عن ضرب الأمثال بهذه الأشياء الخسيسة، قال الله تعالى في الرد  
عليهم: أَرَادَ بِهَذَا إِضْلَالَ قَوْمٍ بِسَبَبِ إِنكَارِهَا، وَهَدَايَةَ آخَرِينَ بِسَبَبِ الْإِيمَانِ بِهَا،  
{ وَمَا يُضِلُّ } بذلك المثل إلا الخارجين عن طاعته، { الَّذِينَ } نقضوا العهد الذي  
أخذ عليهم في عالم الدُّرِّ، أو مطلق العهد، { وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ }  
من الأنبياء والرسل والأرجام وغيرها، { وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ } بالمعاصي  
والتعويق عن الإيمان، { أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } الكاملون في الخسران، نعوذ  
بالله من الخذلان.

الإشارة: إِنْ اللَّهُ لا يترك أن يظهر مثلاً من أنوار قدسه بارزاً بقدرته، مرتدياً برداء  
حكيمته، ملتبساً بأسرار ذاته، مَكْسُوءاً بأنوار صفاته من الذرة إلى ما لا نهاية له،  
فالمتجلي في النملة هو المتجلي في الفيلة، فأما الذين صَدَّقُوا بتجلي الذات في  
أنوار الصفات، فيقولون: إنه الحق فائض من نور الربوبية، محتجباً برداء الكبرياء  
وسبحات الألوهية. وأما الجاحدون لظهور نور ذات الربوبية فينكرونه في حال  
ظهوره، ويقولون: ماذا أراد الله بهذه العوالم الظاهرة؟ فيقول الحق تعالى: أَرَدْتُ  
ظهور قدرتي وعجائب حكمتي، ليظهر سر ربوبيتي في مظاهر عبوديتي.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: " العبودية جوهرة أظهر بها الربوبية "  
وقيل لأبي الحسن التُّورِي: ما هذه الأماكن والمخلوقات الظاهرة؟ فقال: عز  
ظاهر وملك قاهر، ومخلوقات ظاهرة به، وصادرة عنه، لا هي متصلة به ولا  
منفصلة عنه، فرغ من الأشياء ولم تفرغ منه، لأنها تحتاج إليه وهو لا يحتاج إليها.  
هـ.

فأراد الله بظهور هذا الكون أن يضل به قوماً فيقفون مع ظاهر غرَّتِهِ، ويهدي به  
قوماً فينفذون إلى باطن عبرته. وما يضل به إلا الفاسقين الخارجين عن دائرة  
الشهود، المنكرين لتجليات الملك المعبود، الذين ينقضون عهد الله، وهو معرفة  
الروح التي حصلت لها وهي في عالم الذر، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل من  
الشيوخ العارفين، الذين أَهْلَهُمُ اللَّهُ للترقية والترقية، وهم لا ينقطعون ما دامت  
الجملة المحمدية، ويفسدون في الأرض بالإنكار والتعويق عن طريق الخصوص،

بتضييعهم الأصول، وهي صحبة العارفين، والتأدب لهم، والتعظيم لحرمتهم. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

@# { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّنُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }  
#

قلت: { كيف } حال؛ لأنها وقعت قبل كلام تام.

يقول الحق جل جلاله: { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ } وتجدون نعمه المتوالية، { و } الحالة أنكم { كُنْتُمْ أَمْوَاتًا } نطفاً في الأرحام { فَأَحْيَاكُمْ } بنفخ الروح في أجسادكم، { ثُمَّ يُمَيِّنُكُمْ } عند انقضاء آجالكم، { ثُمَّ يُحْيِيكُمْ } عند البعث لحسابكم، ثم يسكنكم دار القرار، إما إلى الجنة وإما إلى النار. فهذه الآثار دالة على باهر قدرته وتمام حكمته، فقد وضح الحق وظهر، { فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ } [الكهف: 29].

الإشارة: كيف تنكرون ظهور نور الحق في الأكوان، وتبعدون عن حضرة الشهود والعيان، وقد كنتم أمواتاً بالغفلة وغم الحجاب، فأحياكم باليقظة والإياب، ثم يميتكم بالفناء عن شهود ما سواه، ثم يحييكم بالرجوع إلى شهود أثره بالله، ثم إليه ترجعون في كل شيء لشهود نوره في كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وعند كل شيء " كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان ".

@# { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }  
#

قلت: { جميعاً } حال مؤكدة من { ما } ، و { ثم } للترتيب الذكري لا الخارجي؛ لأن دحو الأرض مؤخر عن خلق السماء، إلا أن يكون العطف على معنى الجملة، والتقدير: هو الذي خلق لكم الأرض مشتملة على جميع منافعكم، ثم استوى إلى السماء فخلقهن سبعاً، ثم دحا الأرض وبسطها.

والتسوية: خلق الأشياء سالمة من العوج والخلل، و { سبع } بدل من الضمير، أو بيان له، وجملة { وهو بكل شيء عليم } تعليل لما قبله. أي: ولكونه عالماً بكنه الأشياء كلها خلق ما خلق على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع.

يقول الحق جل جلاله: { هُوَ الَّذِي خَلَقَ } لأجلكم { ما } استقر { في الأرض جميعاً } تنتفعون به في الظاهر قوتاً لأشباحكم، ودواء لأبدانكم، ومتعة لنفوسكم، وتنتفعون به في الباطن بالتفكير والاعتبار، وزيادة في إيمانكم وقوة لإيقانكم، ثم قصد { إلى السماء } قصد إرادة، فخلقهن { سبع سَمَاوَاتٍ } مستوية تامة، ليس فيها تفاوت ولا خلل، تظلكم بجزمها، وتضي عليكم بشمسها وقمرها وكواكبها،

وقد أحاط علمه بالأشياء كلها، فلذلك خلقها على هذا النمط الغريب والإتقان العجيب.

الإشارة: يا عبادي خلقْتُ الأشياء كُلَّهَا من أجلكم، الأرض تُقلِّكم، والسماء تُظلمكم، والجهات تُكْتَبِفُكُمْ والحيوانات تُخْدُمُكُمْ، والنباتات تنفعكم، وخلقْتُكم من أجلي، فكيف تميلون إلي غيري، وتنسَوْنَ إحساني وبرِّي؟!!! الأشياء كلها عبيدكم وأنتم عبيد الحضرة، " أنت مع الأكوان ما لم تشهد المُكَوَّنَ، فإذا شهدت المُكَوَّنَ كانت الأكوانُ معك "

وفي بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى: " يا عبدي؛ إنما منحتك صفاتي لتعرفني بها، فإن ادعيتها لنفسك سلبتُك الولاية، ولم أسلبك صفاتي، يا عبدي: أنت صفتي وأنا صفتك، فارجع إليَّ أرجع إليك، يا عبدي: فيك للعلوم باب مفاتحه أنا، وفيك للجهل باب مفاتحه أنت، فاقصد أيَّ البابين شئت، يا عبدي: قربي منك بقدر بعدك عن نفسك؛ وبعدي عنك بقدر قربك من نفسك، فقد عرفتك الطريق، فاترك نفسك تصل إليَّ في خطرة واحدة، يا عبدي: كل ما جمعك علي فهو مني، وكل ما فرقك عني فهو منك، فجاهد نفسك تصل إليَّ، وإني لغني عن العالمين، يا عبدي: إن منحتني نفسك رددتها إليك راضية مرضية، وإن تركتها عندك فهي أعظم بلية، فهي أعدى الأعداء إليك فجاهدها تُعَدُّ بالفوائد إليك "

وفي بعض الآثار المروية عن الله تعالى: " يا عبدي: أنا بُدُّك اللازم فالزم بُدَّك "

ويمكن أن يشار بالأرض إلى أرض العبودية، وبالسماء إلى سماء الحقيقة، وبالسبع سماوات إلى سبع مقامات؛ وهي الصبر والشكر والتوكل والرضى والتسليم والمحبة والمعرفة. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر الخلق العالم العلوي والسفلي، ذكر كيفية ابتداء من عمَّر العالم السفلي من جنس الآدمي.

#@ { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } \*# { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } \* { قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } \* { قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ }

لما أراد الله تعالى عمارة الأرض، بعد أن عمَّر السماوات بالملائكة، أخبر الملائكة بما هو صانع من ذلك؛ تنويهاً بأدم وتشريفاً لذريته، وتعيماً لعباده أمر المشاورة، فقال لهم: { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } يخلفني في أرضي وتنفيذ أحكامي، { قَالُوا } على وجه الاستفهام، أو من الإدلال، إن كان من المقربين، بعد أن رأوا الجن قد أفسدوا وسفكوا الدماء: { أَتَجْعَلُ مَن يُفْسِدُ فِيهَا } ، وشأن الخليفة الإصلاح، { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ } ، أي: نسيح ملتسبين بحمدك، { وَنُقَدِّسُ لَكَ } ، أي: نطهر أنفسنا لأجلك، أو ننزهك عما لا يليق بجلال قدسك، فنحن أحق بالخلافة منهم.

قال الحقّ جلّ وعلا: { إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ }؛ فإني أعلم أنه يكون منهم رسل وأنبياء وأولياء، ومن يكون مثلكم أو أعظم منكم، ولما ألقى الخليل في النار ضجت الملائكة وقال: " يا رب هذا خليلك يحرق بالنار ". فقال لهم: " إن استغاث بكم فأغيثوه ". فلما رفع همّته عنهم قال الحقّ تعالى: { ألم أقل لكم إني أعلم ما لا تعلمون }.

ثم وَجَّهَ الحقّ تعالى استحقاقه للخلافة؛ وهو تشريفه بالعلم، فقال: { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا } ، أي مسميات الأسماء؛ بأن ألقى في رُوعه ما تحتاج إليه ذريته من اللغات والحروف، وخواص الأشياء ومنافعها، ثم عرض تلك المسميات على الملائكة، إظهاراً لعجزهم، وتشريفاً لآدم بالعلم. { فقال }؛ أخبروني { بأسماء هَؤُلَاءِ } المسميات { إن كنتم صادقين } في ادعائكم استحقاق الخلافة، فلما عجزوا عن معرفة تلك الأسماء { قَالُوا سُبْحَانَكَ } أي: تنزيهاً لك عن العبث، { لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ } بكل شيء، { الْحَكِيمُ } لإتقانك كل شيء، وهذا اعتراف منهم بالقصود والعجز، وإشعار بأن سؤالهم كان استفهاماً وطلباً لتفسير ما أشكر عليهم، ولم يكن اعتراضاً.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ } ، وعيّن لهم اسم كل مسمى، فلما أخبرهم بذلك بحيث قال مثلاً: هذا فرس وهذا جمل، وعيّن ذلك لهم، وظهرت ميزته عليهم بالعلم حتى استحق الخلافة، قال الحقّ تعالى: { ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض } أي: ما غاب، وأعلم ما تظهرونه من قولكم: { أَتَجْعَلُ فِيهَا... الخ، وما تكتمونه من استحقاقكم الخلافة، وقولكم: لن يخلق الله تعالى أحداً أعلم منا لتقدمنا، والفضل لمن صدق لا لمن سبق.

قال البيضاوي: اعلم أن هذه الآيات تدل على شرف الإنسان، ومزية العلم وفضله على العبادة، وأنه شرط في الخلافة، بل العمدة فيها، وأن التعليم يصح إطلاقه عليه تعالى، وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه؛ لاختصاصه بمن يحترف به، وأن اللغات توقيفية - عملها الله بالوحي -، وأن آدم عليه السلام أفضل من هؤلاء الملائكة؛ لأنه أعلم منهم، والأعلم أفضل لقوله تعالى: { هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } @#

[الزمر: 9]، وأن الله يعلم الأشياء قبل حدوثها. هـ. باختصار.

وقال في تفسير الملائكة: إنهم أجسام لطيفة قادرة على التشكل، وهي منقسمة على قسمين: قسم شأنهم الاستغراق في معرفة الحق والتنزه عن الاشتغال بغيره، - وهم العليّون، والملائكة المقربون - وقسم يدبرون الأمر من السماء إلى الأرض على ما ثبت به القضاء وجرى به القلم الإلهي، وهم المدبرات أمراً، فمنهم سماوية، ومنه أرضية. هـ. مختصراً.

الإشارة: اعلم أن الروح القائمة بهذا الآدمي هي قطعة من الروح الأعظم التي هي المعاني القائمة بالأواني، وهي آدم الأكبر والأب آدم، وفي ذلك يقول ابن الفارض:

وإني وإن كنت ابن آدم صورةً فلي فيه معنيّ شاهدٌ بأبوتي

فلما أراد الحق تعالى أن يستخلف هذا الروح في هذه البشرية لتدبرها وتصرفها فيما أريد منها، قالت الملائكة بلسان حالها: كيف تجعل فيها من يفسد فيها بالميل إلى الحطوط والشهوات، ويسفك الدماء بالغضب والحميات، ونحن نسبحك وننزهك عما لا يليق بك؟ رأت الملائكة ما يصدر من بعض الأرواح من الميل إلى الحضيض الأسفل، ولم تر ما يصدر في بعضها من التصفية والترقية، فقال لهم الحق تعالى: { إني أعلم ما لا تعلمون }؛ فإن منها من تعرج إلى عرش الحضرة، وتعبدني بالفكرة والنظرة، وتستولي على الوجود بأسره، وتتكشف لها عند ذلك أسرار الذات وأنوار الصفات وأسماء المسميات.

فيقول الحق تعالى للملائكة: هل فيكم من كشف له عن هذا السر المكنون، والاسم المصون، فقالوا: { سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا } من علم الصفات دون أسرار الذات { إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } يقول الحق تعالى لروح العارف التي نفذت إلى بحر وحدة الذات وتيار الصفات: أنبئهم بما غاب عنهم من أسرار الجبروت، وأسماء الملكوت، فلما أعلمهم بما كوشف له من الأسرار، وانفق له من الأنوار، أقروا بشرف الإدمي، وسجدوا لطلعة آدم عليه السلام فقال الحق لهم: { أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }؟ أي: ما غاب في سماء الأرواح من الأسرار وفي أرض النفوس من الأنوار، وأعلم ما تظهرونه من الانقياد، وما تكتُمونه من الاعتقاد، والله تعالى أعلم.

ولما تبين شرف آدم عليه السلام وبان فضله أمرهم بالسجود له.  
@# { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَا وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ }  
#

قلت: { إذ } ظرف للماضي، ضد إذا، وهي معمولة لفعل مقدر، يفسره قوله تعالى:  
{ وَادْكُرُوا إِيذُكُمْ }  
[الأعراف: 86]، فحيثما وردت في القرآن فيقدر له " اذكر " ، والاستثناء متصل؛ إذا قلنا إبليس من الملائكة، ومنقطع؛ إذا قلنا من الجن. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: واذكر { إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ } ، لام تبين فضيلة، آدم أمرهم بالسجود، فقال لهم: { اسْجُدُوا لِآدَمَ } سجدوا انحناء، { فَسَجَدُوا } كلهم، لأنهم شهدوا الجمع ولم يشهدوا الفرق، فرأوا آدم قبلة، أو نوراً من أنوار عظمته، { إِلَّا إِبْلِيسَ } أي: امتنع؛ حيث نظر الفرق بحكمة الواحد القهار، فاستبكر { وكان } من جملة { الكافرين }. وكفره باعتراضه على الله وتسفيه حكمه، لا بامتناعه؛ إذ مجرد المعصية لا تكفر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا كمل تصفية الروح، وظهر شرفها، خضع لها كل شيء، وتواضع لها كل شيء، وانقاد لأمرها من سبقت له العناية، وهبت عليه ريح الهداية، لأنها صارت آدم الأكبر، إلا من إبليسته المشيئة، وطردته القدرة، فاستبكر عن تحكيم جنسه على نفسه، وكان من الكافرين لوجود الخصوصية، جزاؤه حرمان شهود طلعة الربوبية، وهبوطه إلى حضيض العمومية.

#@ { وَفُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } #\* { فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَفُلْنَا أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَّا جِينِ } \* { فَتَلَقْنَا آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }

قلت: { رَغَدًا } :صفة لمصدر محذوف، أي: أكلًا رَغَدًا واسعاً، و { تكونا } : منصوب، جواب الأمر، أو معطوف على { تقرباً } ، و { أزلهما } : أوقعهما في الزلل بسبب الأكل، أو أذهبهما عن الجنة، ويدل عليه قراءة حمزة: " فأزالهما " وجملة { بعضكم لبعض عدو } : حالية، أي: متعادين.

يقول الحق جلّ جلاله: { وَفُلْنَا يَا آدَمُ } حين سجدت له الملائكة ودخل الجنة: { اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ } حواء { الجنة } ، وكانت خلقت من ضلعه الأيسر، { وَكُلَا } من ثمار الجنة { حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ } : العنب أو التين أو الحنطة؛ { فَتَكُونَا } إن أكلتما منها { مِنَ الظَّالِمِينَ } لنفسيكما. فدخل إبليس خفية أو في فم الحية، فتكلم مع آدم عليه السلام فقال له آدم عليه السلام: ما أحسن هذه الحالة لو كان الخلود. فحفظها إبليس، ووجد فيها مدخلاً من جهة الطمع، فقال له:

{ هَلْ أَذُكَ عَلَيَّ شَجَرَةَ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى }

[طه: 120] فذله على أكل الشجرة، وقال:

{ مَا تَهَاكُمَا رَبُّكُمَا }

[الأعراف: 20] عنها

{ إِلَّا }

[الأعراف: 20] كراهية

{ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ } [الأعراف: 20، 21]. وأكلت حواء أولاً، ثم قالت له: قد أكلت ولم يضرني، ثم أكل آدم عليه السلام من جنس الشجرة، لا من عينها، متأولاً، فطار التاج واللباس، وأخرجهما { مما كانا فيه } من رعد العيش والعناء، وأهبطهما إلى الأرض، للتعب والعناء، ليكون خليفة على ما سبق به القضاء.

فقال لهم الحق تعالى: { أَهْبَطُوا } آدم وحواء وإبليس والحية، { بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ } استقرار وتمتع { إِلَى جِينِ } وفاتكم، فتقدمون علي فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، { فَتَلَقَى } أي أخذ { آدم من ربه كلمات } وهي:

{ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ }

[الأعراف: 23] ، { فتاب } الحق تعالى عليه واجتباها لحضرتها، فإنه تَوَّابٌ كثير التوبة على عباده، رحيم بهم، أرحم من أبيهم وأمههم، اللهم ارحمنا رحمة تعصمنا بها عن رؤية السوي، إنك على كل شيء قدير.

الإشارة: يقول الحق جلّ جلاله للروح، إذا كمل تهذيبها، وتمت تربيتها: اسكن أنت وبشرتك التي تزوجتها - قال تعالى:

{ وَإِذَا النُّفُوسُ رُجِّعَتْ }

[التكوير: 7] - جنة المعارف، وكُلَا من ثمار أذوابها وأنها علومها، وتَبَوَّءًا من قصور ترقياتها، أكلاً واسعاً ما دمتما متحليين بالأدب، ولا تقربا شجرة المعصية وسوء الأدب { فتكونا من الظالمين } ، فلما سكنت جنة الخلود، وشَرِهَتْ إلى الخلود،

أهبطها الله إلى أرض العبودية، وردّها إلى البقاء؛ لتستحق الخلافة، وتقوم بحقوق الربوبية، بسبب ما ارتكبه من المعصية، وهي الشرُّ إلى دوام الحرية، " أكرم بها معصيةً أورثت الخلافة! " ، فكل ما ينزل بالروح إلى قهريّة العبودية، فهو سبب إلى الترقّي لشهود نور الربوبية، وربما قضي عليك بالذنب فكان سبب الوصول، فلام أراد الحق تعالى أن ينزلها إلى أرض العبودية بالسلوك بعد الجذب، قال لها ولمن يحاربها من الشيطان والهوى والدنيا وسائر الحطوط: اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم - أيها العارفون بعد جهاد أعدائكم - في أرض العبودية، استقرار وتمتّع بتجليات أنوار الربوبية، إلى حين الملافة الحقيقية. فتلقت الروح من ربها كلمات الإنابة، وهبّ عليها، نسيم الهداية، بما سبق لها من عين العناية، فتاب عليها، وقربها إلى حضرة الشهود، ومعاينة طلعة الملك الودود، إنه تواب رحيم جواد كريم.

#@ { قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } \*# { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

قلت: { إن } : شرط، و { ما } زيدت لتقوية الشرط، ولذلك دخلت نون التوكيد، وعبر بان دون { إذا } ، مع تحقق مجيء الهدى؛ لأنه غير واجب عقلاً، وجملة الشرط الثاني وجوابه، الشرط الأول، و { جميعاً } حال مؤكدة؛ أي: اهبطوا أنتم أجمعون، ولذلك لا يقتضي اجماعهم على الهبوط في زمان واحد.

ولما أمر الحقّ جلا جلاله آدم أولاً بالهبوط من الجنة، جعل يبكي ويتضرّع ويقول: ألم تخلقني بيدك؟ ألم تسجد لي ملائكتك؟ ألم تدخلني جنتك؟ ثم ألهم الكلمات التي تلقاها من ربه، فتاب عليه ورحمه، فطمع آدم حين سمع من ربه قبول توبته في البقاء في الجنة، فقال له الحقّ جلّ جلاله: يا آدم لا يجاورني من عصاني، وقد سبقت كلمتي بهبوطك إلى الأرض لتكون خليفتي بذريتك، فكّرر عليه الأمر بالهبوط ثانياً. فقال: { اهبطوا منها جميعاً } أنتما بما اشتملتما عليه من ذريتكما. فمهما { يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى } أي: بيان وإرشاد إلى توحيد ومعرفتي، على يد رسول أو نائب عنه، { فَمَنْ تَبِعَ } ذلك الإرشاد، واهتدى إلى معرفتي وتوحيدي، وعمل بطاعتي وتكاليفي، { فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ } من لحوق مكروه { وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } من فوات محبوب، لأنني أصرف عنهم جميع المكاره، وأجلب لهم المنافع، { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } الدالة على قدرتنا المنزلة على رسلنا، { وَاسْتَكْبَرُوا } [النساء: 173] عن النظر فيها، أو عن الخضوع لمن جاء بها، { أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } .

الإشارة: إذا سكنت الأرواح في عُشِّ الحضرة، وتمكنت من الشهود والنظرة، أمرها الحق تعالى بالنزول إلى سماء الحقوق أو أرض الحطوط، فتنزل بالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين، لا لطلب جزاء أو لقضاء شهوة، بل تنزل بالله ومن الله وإلى الله، فمن نزل منها على هذا الهدى الحسن { فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } ، ومن ركب بحر التوحيد مع غير رئيس عارف، ولم ياب إلى سفينة الشريعة، واستكبر عن الخضوع إلى تكاليفها لعبت به الأمواج، فكان من المغرقين. { أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون }؛ لأن من تحقق ولم يتشرع

فقد تزدق، ومن تشرع ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق، جعلنا الله ممن تحقق بهما. وسلك على مهاجهما إلى الممات، أمين.

ولما ذكر الحق تعالى شرف كتابه، ونفى وجد الريب عن ساحته، ثم دعا إلى توحيده، وبرهن على وجوده، بابتداء خلق العالم من عرشه إلى فرشه، وذكر كيفية ابتداء عمارته، خالط بني إسرائيل؛ لأنهم أهل العلم بالأخبار المتقدمة، وقد مسعوا هذه الأخبار نبي أمي لم يُعهد بقراءة ولا تعلم، فقامت الحجة عليهم، وتحققوا أنه من عند الله. وما منعهم من الإسلام إلا الحسد وحب الرئاسة، فلذلك أطال الحق الكلام معهم، تارة يُقرّعهم على عدم الإيمان وما فعلوا مع أنبيائهم، وتارة يذكرهم النعم التي أنعم الله على أسلافهم.

@# { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِي  
بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } \*# { وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا  
أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ } \* { وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ  
بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } \* { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا  
مَعَ الرَّاٰكِعِينَ }

قلت: { إسرائيل } : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل - عليهم الصلاة  
السلام - وهو اسم عجمي، وبنو تميم تقول: " إسرائيل " بالنون، (وإسرا)  
بالعبرانية: عبد، و (إيل): اسم الله تعالى، فمعناه: عبد الله، وبنو إسرائيل: هم  
أولاد يعقوب عليه السلام، و { بعهدتي } من إضافة المصدر إلى فاعله، و  
{ بعهدكم } إلى مفعوله، و { إياي } منصوب بفعل مضمر، يُقدر مؤخرًا. أي:  
أياي ارهبوا فارهبون. وحذف مفعول { ارهبون } لرؤوس الآي وكذا قوله:  
{ وإياي فاتقون } ، والرهبية: خوف مع تحزُّر، و { تكتموا } : معطوف على  
{ تلبسوا } ، أو منصوب بأن مضمرة بعد النهي، و { أنتم تعلمون } : جملة حالية.

يقول الحق جلّ جلاله: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ } التي خصصتكم بها، بأن  
فضلتكم على أهل زمانكم، وجعلت فيكم أنبياء ورسلاً، كلما انقرض نبي بعثت نبياً  
آخر، وجعلتكم ملوكاً وحكاماً على الناس، قبل أن تفسدوا في الأرض بقتل الأنبياء،  
فتكفروا بهذه النعم، فإن الإنسان حسود غيرو بالطبع، فإذا نظر إلى ما أنعم الله  
على غيره حمله الحسد والغيرة على السخط والكفران، وإذا نظر إلى ما أنعم الله  
به عليه حمله حب النعمة على الرضا والشكر، فاذكروا ما أنعمت به عليكم،  
وقيدوه بالشكر، { وَأَوْفُوا بِعَهْدِي } الذي عهدت إليكم، وهو أنكم إن أدركتم  
محمداً صلى الله عليه وسلم لتؤمنن به ولتنصرنه، ولتبينن صفته التي في كتابكم،  
ولا تكتمونها، { أَوْفِي بِعَهْدِكُمْ } بأن أدخلكم جنتي، وأبوح لكم النظر إلى وجهي،  
وأحل عليكم رضواني في جملة عبادي، ولا ترهبوا أحداً غيري، فإنه لا فاعل غيري.

وبادروا إلي الإيمان { بِمَا أَنْزَلْتُ } على محمد رسولي، من كتابي، الذي هو  
مصدق { لِمَا مَعَكُمْ } من التوراة، ومهيمن عليه، { وَلَا تَكُونُوا أُولَ } فريق  
{ كَافِرٍ بِهِ } ، فتبوؤوا بإثمكم وإثم من تبعكم، ولا تستبدلوا الإيمان الذي هو سبب  
الفوز في الدارين، بالعرض الفاني الذي تأخذونه من سفلتكم، فإنه ثمن قليل  
يعقبه عذاب جليل وخزي كبير. ولا تخشوا أحداً سواي؛ فإن النفع والضرر بيدي،  
ولا تخلطوا { الْحَقَّ } الذي هو ذكر محمد صلى الله عليه وسلم وصفته التي في

كتابكم، { بِالْبَاطِلِ } الذي تريدونه تحريفاً وتأويلاً، { و } لا { تَكْتُمُوا الْحَقَّ } الذي عندكم، من ذكر محمد وصحة رسالته، { وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } أنكم محرفون، ولا بسون عناداً وحسداً، فيحل عليكم غضبي وعقابي،  
{ وَمَنْ يَخْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ }  
[طه: 81]. فإذا حصلتكم أصول الدين، وهو الإيمان، فاشتغلوا بفروعه، وهي الصلاة والزكاة وغيرهما، فأدوهما على منهاج المسلمين. واجعلوا صلاتكم في جماعة المؤمنين؛ فإن صلاة الجماعة تُفضلُ غيرها بسبع وعشرين درجة، مع سريان واقتباس الأنوار من الصالحين والأبرار، وبالله التوفيق.

الإشارة: إذا توجّه الخطاب إلى طائفة مخصوصة، حمله أهل الفهم عن الله على عمومه لكل سامع، فإن الملك إذا عاتب قوماً بمحضر آخرين، كان المراد بذلك تحذير كل من يسمع، فكان الحق جلّ جلاله يقول: يا بني آدم اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وتفكروا في أصولها وفروعها، واشكروني عليها بنسبتها إليّ وحدي، فإنه لا منعم غيري، فمن شكركني شكرته، ومن فيض إحساني وبري مددته، ومن كفر نعمتي سلّيته، وعن بابي طردته، وأوفوا بعهدي بالقيام بوظائف العبودية، أوف بعهدكم بأن أطلعكم على أسرار الربوبية.  
@أوف: { أوفوا بعهدي } بالقيام برسوم الشريعة، { أوف بعهدكم } بالهداية إلى منار الطريقة، أوف: { أوفوا بعهدي } بسلوك منهاج الطريقة، { أوف بعهدكم } بالإيصال إلى عين الحقيقة، أوف: { أوفوا بعهدي } بالاستغراق في بحر الشهود، { أوف بعهدكم } بالترقي أبداً على الملك الودود، وخصّوني بالرهب والرغب، وتوجهوا إليّ في كل سؤال وطلب، أعطف عليكم بعنايتي وودي، وأمنحكم من عظيم إحساني ورفدي، { وأمنوا بما أنزلت } على قلوب أوليائي، ومن مواهب أسراري وآلآئي، تصديقاً لما أتحت به رسلي وأنبيائي، فكل ما ظهر على الأولياء فهو معجزة للأنبياء وتصديق لهم، ولا تبادروا بالإنكار على أوليائي، فتكونوا سبباً في طرد عبادي عن بابي، ولا يمنعكم حب الرئاسة والجاه عن الخضوع إلى أوليائي، ولا ترقبوا أحداً غيري، فإنني أمنعكم من شهود سري.

{ ولا تلبسوا الحق بالباطل } ، فتظهروا شعار الصالحين وتبطنوا أخلاق الفاسقين، تنزبوا بزي الأولياء، تفعلوا فعل الأغوياء، وإذا تحققتكم بخصوصية أحد من عبادي، فلا تكتموها عن أهل محبتي وودادي، وأقيموا صلاة القلوب بالخضوع تحت مجاري الأقدار، وأدّوا زكاة النفوس بالذل والانكسار، وكونوا مع الخاشعين، { واركعوا مع الراكعين } ، أمنحكم معونتي ونصري، وأفيض عليكم من بحر إحساني وبري، أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي.

#@ { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَلُونَ الْكِتَابَ أَقَلًّا تَعْقِلُونَ }  
#

قلت: البر، بالكسر: يجمع وجوه الخير وأنواع الطاعات، والنسيان: الترك.

يقول الحق جلّ جلاله في توبيخ أخبار اليهود: كانوا إذا استرشدتهم أحد من العرب دلّوه على الإسلام، وقالوا له: دين محمد حق، وهم يمتنعون منه، وقيل: كانوا يأمرون الناس بالصدقة وهم يبخلون، فقال لهم: كيف { تأمرون الناس بالبر } والإحسان، وتتركون { أنفسكم } في الكفر والعصيان، وأنتم تدرسون التوراة الصحيح، وتعلمون أن ذلك من أقبح القبيح؟، أفلا عقل لكم يزرركم عن هذه

الخصلة الذميمة؟! فإن من شأن العقل التمييز بين القبيح والحسن والنافع والضرار، فكل من تقدم لما فيه ضرره فلا عقل له.

الإشارة: كل من أشار إلى مقام لم يبلغ قدمه إليه، فهذا التوبيخ متوجهٌ إليه، وكل من ذكر غيره بعيد لم يتخلص منه، قيل له: أتأمر الناس بالبر وتنسى نفسك خالية منه، فلا يسلم من توبيخ هذه الآية من أهل التكدير إلا الفرد النادر من أهل الصفاء والوفاء.

وقال البيضاوي: (المراد بها حثُّ الواعظ على تزكية النفس، والإقبال عليها بالتكميل لثَقُومِ فَيَقِيمِ، لا منع الفاسق عن الوعظ، فإن الإخلال بأحد الأمرين المأمور بهما لا يوجب الإخلال بالآخر). فانظره. وتأمل قول القائل:

يا أيها الرجلُ المعلمُ غيره هَلَّا لنفسيكَ كانَ ذا التعليمِ  
تَصِفُ الدواءَ لِذي السقامِ وَذي الصِّتَا وَمِن الصِّتَا وَجَواهُ أَنْتَ سَقِيمٌ  
وَأرَاكَ تَلقُحُ بِالرِشَادِ عَقُولَنَا نُصْحًا، وَأَنْتَ مِنَ الرِّشَادِ عَدِيمٌ  
أَبداً بِنفسِكَ فَانْهَها عَن عَيْبِها فَإِذا انْتَهتْ عَنْه فَانْتَ حَكِيمٌ  
فَهَنَّاكَ يُقْبَلُ إِنْ وَعظْتَ، وَبُقْتَدَى بِالقولِ مِنْكَ، وَينفَعُ التَّعليمُ  
لَا تَنَّهُ عَن خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ عازُّ عَلَيْكَ إِذا فَعَلْتَ عَظِيمٌ  
لكن مَنْ حصلَ له بعض الصفاء ذكر غيره ونفسه معهم، وكان بعض أشياخنا يقول  
حين يذكر الفقراء: نحن إنما نبيح على نفوسنا.  
{#} {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} {#} \* {الَّذِينَ  
يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}

قلت: الصبر: هو حبس القلب على حكم الرب، فيحتمل أن يراد به ظاهره، أو يراد به هنا الصوم، لأن فيه الصبر عن الشهوات. والخشوع في الجوارح: سكونها ودُّلها، والخضوع في القلب: انقياده لحكم الرب.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: يا مَنْ ابتلي بالرياسة والجاه، استكبر عن الانقياد لأحكام الله؛ التي جاءت بها الرسل من عند الله، استعن على نفسك { بالصبر } على قطع المألوفات، وترك الحطوط والشهوات، وأصل فروعها حب الرئاسة والجاه، فمن صبر على تركهما فاز برضوان الله. وفي الحديث: " وفي الصبر على ما تكره خير كثير "

قال الشاعر:

والصَّبْرُ كالصَّبْرِ مُرٌّ فِي مَدَاقِنِهِ لَكِنْ عَواقِبُهُ أَحلى مِنَ العَسَلِ  
أَوْ: { وَاسْتَعِينُوا } بِالصَّوْمِ { وَالصَّلَاةِ } ، فَإِنْ فِي الصَّوْمِ كَسَرَ الشَّهْوَةِ وَتَصْفِيَةَ  
النفسِ، إِذا صَفَتِ النفسُ مِنَ الرَّذائِلِ تَحَلَّتْ بِأَنْواعِ الفِضائلِ، كالتواضع  
والإنصاف، والخشوع وسائر سني الأوصاف، وفي الصلاة أنواع من العبادات  
النفسية والبدنية، كالطهارة، وستر العورة، وصرف المال فيهما، والتوجه إلى  
الكعبة، والعكوف للعبادة، وإظهار الخشوع بالجوارح، وإخلاص النيَّة بالقلب،  
ومجاهدة الشيطان، ومناجاة الرحمن وقراءة القرآن، وكف النفس عن الأطيِّين،  
وفي الصلاة قضاء المأرب وجبر المصائب، ولذلك كان - عليه الصلاة والسلام - إِذا  
حَزَّ بِهِ أمرٌ فَرَزَ إِلى الصَّلَاةِ، { وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ } أَي: شاقَّةٌ على النفس؛ لتكربها في

كل يوم، ومجيئها وقت حلاوة النوم، { إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } الذين سكنت حلاوتها في قلوبهم، وتاجوا فيها مع ربهم، حتى صارت فيها قُرّة عينهم.

الذين يتيقنون { إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ } فيتنعمون بالنظر إلى وجه الكريم، ويتيقنون أيضاً أنهم راجعون إلى ربهم بالبعث والحشر للثواب والعقاب، وإنما عبّر الحق تعالى هنا بالظن في موضع اليقين إبقاء على المذنبين، وتوفيراً على العاصين، الذين ليس لهم صفاء اليقين؛ إذ لو ذكر اليقين صرفاً لخرجوا من الجملة، فسبحانه من رب حلیم، وجواد كريم. اللهم امنن علينا بصفاء المعرفة واليقين، حتى لا يختلج قلوبنا وهَمٌّ ولا ريب، يا رب العالمين.

الإشارة: يا من رام الدخول إلى حضرة الله، تذلل وتواضع لأولياء الله، وتجرّع الصبر في ذلك كي يدخلوك حضرة الله، كما قال القائل:

تَذَلُّ لِمَنْ تَهْوَى؛ فَلَيْسَ الْهَوَى سَهْلٌ إِذَا رَضِيَ الْمَحْبُوبُ صَحَّ لَكَ الْوَصْلُ  
فإن منعك من ذلك حب الرئاسة والجاه، فاستعن على ذلك بالصبر والصلاة، فإن الصبر عنوان الظفر، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. فأدمن قرع الباب حتى تدخل مع الأحباب، فالإدمان على عبادة الصلاة أمره كبير، إلا من خلص إلى مناجاة العلي الكبير، وتحقق بملافة الشهود والعيان، ورجع إلى مولاه في كل أوان، فإن الصلاة حينئذ تكون له من قرة العين. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما أمرهم بالأصول والفروع، ذكرهم بالنعيم، وخوفهم بالوعيد علي عدم شكرها.  
@# { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَصَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } \*# { وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ }

قلت: { العدل } بالفتح: الفداء، وبالكسر: الحمل، وجملة { لا تجزي } : صفة ليوم، والعائد محذوف، أي: لا تجزي فيه.

يقول الحق جل جلاله: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ } على آبائكم بالهداية وبعث الرسل، { وَأَنِّي فَصَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } : أهل زمانكم، فاذكروا هذه النعم واشكروني عليها؛ بأن تتبعوا هذا النبي الجليل، الذي تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل.

وخافوا { يَوْمًا } لا تفضي فيه { نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا } بحيث لا تجلب لها نفعاً، ولا تدفع عنها ضرراً، ولا تقبل { مِنْهَا شَفَاعَةٌ } إن وقعت الشفاعة فيها، ولا يؤخذ منها فداء، إن أرادت الفداء عنها، ولا تنتصر في دفع العذاب، إن أرادت الانتصار بعشيرتها. فانتفى عنها وجوه الامتناع من العذاب بأي وجه أمكن؛ فإن الإنسان إذا أخذ للنكال احتال على نفسه إما بالشفاعة، أو بالفداء إن لم تقبل الشفاعة فيه، أو بالانتصار بأقاربه، والآية في الكفار، فلا حجة لمن ينفي الشفاعة في عَصاة المؤمنين، والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد يتوجه العتاب إلى أهل الرئاسة والجاه، من العلماء والصالحين، وكل من حُصَّ بشرف أو خصوصية، فيقول لهم الحق تعالى: { اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي

أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ { بالعلم أو السيادة أو الصلاح، وبأن فضلتكم على أهل زمانكم، وخصتكم من أبناء جنسكم؛ فقد رُوِيَ: " أَنَّ الْعَبْدَ يُحَاسِبُ عَلَى جَاهِهِ كَمَا يُحَاسِبُ عَلَى مَالِهِ ". فمن صرفه في طاعة الله، وتواضع لعباد الله، وسعى في حوائجهم، وأبلغ الجهد في قضاء مآربهم، كان ذلك شكراً لنعمة الجاه؛ فقد رُوِيَ في الحديث: " مَنْ سَعَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، قُضِيََتْ أَوْ لَمْ تُقْضَ، عُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَكُتِبَ لَهُ بِرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ وَبِرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ ".

ولا يأخذ على ذلك أجراً ولا جُعلاً؛ فإنَّ ذلك سحت وربا، ومن تكبر به وطغى، أو أخذ على ذلك أجراً، قيل له يوم القيامة: قد استوفيت أجرك فلا حظ لك عندنا، فلا تنفعه شفاعته، ولا يقبل منه فداء، ولا يقدر أن ينتصر من موارد الهوان والردى، ففي بعض الأخبار: يقول الله تعالى للفقراء الذين يعظمون في الدنيا لأجل فقرهم: ألم أرخص لكم الأسعار؟ ألم أوسع لكم المجالس؟ ألم أعطف عليكم عبادي؟ فقد أخذتم أجركم في الدنيا. أو كما قالك والله تعالى أعلم.

#@ { وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْتَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ }  
#

قلت: { إذ } : معمول لاذكروا، و { فرعون } : اسم لكل من ملك القبط، كما أن قيصر اسم لمن ملك الروم، وكسرى اسم لمن ملك الفرس، واسم { فرعون } الذي كان في زمن موسى عليه السلام: " مصعب بن ريان " ، وقيل: ابنه الوليد. وسام يسوم: طلب وبغى، يقال: سامه خسفاً إذا أولاه ظلماً، وجملة { يسومونكم } : حال من { آل فرعون } ، وجملة { يذبحون } : بيان لها. وسوء العذاب: أفضعه وأقبحه.

يقول الحق جلّ جلاله: يا بني إسرائيل اذكروا نعمة أخرى أنعمت بها على أسلافكم، وأنتم عالمون بها، وذلك حين أنجيناكم من عذاب فرعون ورهطه، يولونكم أقيح العذاب وأشنع، كانوا يستعبدون رجالكم ونساءكم في مشاق الخدمة والمهنة، ولما أخبره الكهان أنه سيخرج منكم ولد يُخَرَّبُ ملكه، جعل يذبح ذكوركم ويترك نساءكم، وفي ذلك محنة { مِنْ رَبِّكُمْ } وابتلاء { عَظِيمٌ } ، أو في ذلك الإنجاء اختبار من ربكم عظيم، فاذكروا هذه النعمة، وتحصنوا بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم من محنة أخرى، ولا ينفع حذر من قدر، { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا } [الأحزاب: 38]. وبالله التوفيق.

الإشارة: لكل زمان فراعين وجبابرة يقطعون الناس عن الانقطاع إلى الله والدخول إلى حضرة الله، { صَلَّى سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا } [الكهف: 104]،

يقول الحق جلّ جلاله للذين تخلصوا منهم: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم بها؛ حيث أنجيتكم من فراعين زمنكم، { يسومونكم سوء العذاب }؛ وهو البقاء في غم الحجاب، والانقطاع عن الأحباب، يقتلون ما ربيتم من اليقين في قلوبكم

والمعرفة في أسراركم، ويستحيون شهواتكم وحظوظكم، { وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم. } قال تعالى: { وَإِنْ تُطَعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَشَاءُ إِلَّا الظَّنَّ... } [الأنعام: 116]. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

@# { وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } #

ثم ذكّرهم الحق تعالى نعمة أخرى؛ وهي فلق البحر وإغراق العدو، فقال:

يقول الحقّ جلّ جلاله: واذكروا أيضاً حين { فرقنا } بسبيكم { البحر } ، حين فررتم من عدوكم، فسلكتم فيه اثني عشر مسلكاً يابساً، حتى خلصتم إلى الشام، فلما أدرككم عدوكم، واستتمّ دخوله فيه، أطبقنا عليهم البحر { فأنجيناكم وأغرقتنا آل فرعون } وأنتم تعابنون غرقهم وهلاكهم، فاشكروا هذه النعم التي أنعمت بها على أسلافكم، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم على نبي أمي، لم يكن له علم بهذا، حتى علمه بالوحي من ربكم.

الإشارة: قال بعض الحكماء: (الهوى بحر لا ساحل له إلا الموت): فلا يقطع بحر الحظوظ والعوائد، إلا الخواص، الذين منّ الله عليهم بسلوك الطريقة، والغرق في بحر الحقيقة، على يد رجلا جمعوا بين الشريعة والحقيقة، فيقول الحق - جلّ جلاله - لمن تخلص من بحر هواه، وأفضى إلى مشاهدة مولاه: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم؛ حيث خلصتكم من بحر الشهوات والعوائد، وأطلعتكم على أسرار العلوم وذخائر الفوائد، وأغرقتنا فيه من تكبر وطغي، وأنتم تنظرون ما فيه الناس من غم الحجاب وسوء الحساب، في بحر لحي يغشاه موج الذنوب، من فوقه موج الحظوظ، من فوقه سحب الأثر، إذا أخرج يده لم يكدرها ومن لم يجعل الله له نوراً لما له من نور. وبالله التوفيق.

@# { وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً لِّئِمَّ أَنْتُمْ الْعَجَلَ مِنَ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ } # \* { تُمْ عَفْوًا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } \* { وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }

قلت: { أربعين } مفعول لواءعدنا، لا ظرف، و { العجل } مفعول أول، والثاني محذوف، أي: اتخذتموه إليها، و { الفرقان } معطوف على { الكتاب }.

يقول الحقّ جلّ جلاله: واذكروا أيضاً حين { وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ } أن يصوم { أَرْبَعِينَ لَيْلَةً } بأيامها متواصلة، وذلك حين طلبتم منه أن ينزل عيه الكتاب فيه بيان الأحكام، ثم لما صامها، وهي: ذو القعدة وعشر ذي الحجة، وأتى إلى المناجاة، كفرتم، و { اتَّخَذْتُمْ الْعَجَلَ } الذي صاغه السامريُّ من الخلي، الذي أخذته نساء بني إسرائيل من القبط عارية، ففرّوا به ظناً منهم أنه حلال، فقال لهم هارون عليه السلام: لا يحل لكم، فطرحوه في حفرة، فصاغ منه السامري صورة العجل، وألقى في جوفه قبضة أخذها من تحت حافر فرس جبريل عليه السلام حين عبر معهم البحر، فجعل يخور، فقال السامري:

{ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى }  
[طه: 88]، { وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ } في عبادته، { ثُمَّ عَقَوْنَا عَنْكُمْ } بالتوبة وقتل  
النفس على ما يأتي، { لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } ، فلا فلا تعصون نعمة، { و } اذكروا  
أيضاً { إِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } الذي طلبتم، وهو التوراة، وهو { الفرقان } الذي  
فرقنا فيه بين الحق والباطل، كي تهتدوا إلى الصواب فتنجوا من العذاب.

الإشارة: ما زالت الأشياخ والأولياء الأقدمون ينتحلون طريق سيدنا موسى عليه  
السلام في استعمال هذه الأربعين، ينفردون فيها إلى مولاهم، مؤانسة ومناجاة،  
وفي ذلك يقول ابن الفارض رضي الله عنه:

وَصِرْتُ مُوسَى رَمَانِي مَذْ صَارَ بَعْضِي كَلِّي  
وقال:

صَارَتْ جِبَالِي دَكًّا مِنْ هَيْبَةِ الْمُتَجَلِّي  
فيفارقون عشائرتهم وأصحابهم في مناجاة الحبيب، والمؤانسة بالقرب، فمن  
أصحابهم مَنْ يبقى على عهده في حال غيبة شيخه، من المجاهدة والمشاهدة،  
ومنهم مَنْ تسرقه العاجلة فيرجع إلى عبادة عجل حظه وهواه؛ فيظلم نفسه  
بمتابعة دنياه، فإن بادر بالتوبة والإقلاع، ورجع إلى حضرة شيخه بالاستماع والاتباع،  
وقع عنه العفو والغفران ورجا ما كان يؤمله من المشاهدة والعيان، وإلا باء  
بالعقوبة والخسران، وكل مَنْ اعتزل عن الأحباب والعشائر والأصحاب، طالباً جمع  
قلبه، ورضى ربه، فلا بد أن ترد عليه أسرار ربانية ومواهب لدنية، من لدن حكيم  
عليم، يظهر بها الحق، ويدفع بها الباطل، فيفرق بين الحق والباطل. والله تعالى  
أعلم.

@# { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا  
إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ  
الرَّحِيمُ }  
#

قلت: الباريء هو: المقدر للأشياء والمظهر لها.

يقول الحقّ جلّ جلاله: واذكروا يا بني إسرائيل حين { قال } موسى { لقومه }  
لما رجع من الطور، ووجدهم قد عبدوا العجل: { يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ }  
وبخستموها { باتخاذكم العجل } لإلهكم، { فُتُوبُوا إِلَى } خالقكم الذي صوركم  
في أحسن تقويم، { فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } بهدم هذه البنية التي ركبها في أحسن  
صورة، فبخستموها، ولم تعرفوا قدرها، فعبدتم أبلد الحيوان، الذي هو البقرة. من  
لم يعرف حق النعمة فحقيق أن تُسترد منه.

فذلكم القتل والمبادرة إلى التوبة { خير لكم } عند خالقكم، لأنه يفضي إلى  
الحياة الدائمة والبهجة السرمدية، فلما صعب عليكم القتل؛ للشفقة على الأخ أو  
القريب، ألقينا عليكم ضباية حتى أظلم المكان، فاقتلتكم من الغداة إلى العشي،  
فدعا موسى وهارون - عليهما السلام - بالكشف عنهم، فرفعت السحابة، وقد  
قُتل سبعون ألفاً، ففعلتم ذلك القتل، فتاب الحق تعالى عليكم، فقبل توبة مَنْ بقي  
منكم، وعفا عمت مات؛ { إنه هو التواب الرحيم } أي: كثير التوفيق للتوبة، أو  
كثير قبولها، الرحيم بعباده المؤمنين.

الإشارة: ما قاله سيدنا موسى عليه السلام لقومه، يقال مثله لمن عبد هواه، وعكف على متابعة دنياه: يا من بخس نفسه بإرخاء العنان في متابعة هواها، حتى حرمها من مشاهدة جمال مولاها، نُب إلى ربك، وانتبه من غفلتك، واقتل نفسك بمخالفة هواها، فلعلها تحيا بمشاهدة مولاها، فما دامت النفس موجودة، وحظوظها لديها مشهودة، وأمالها ممدودة، كيف تطمع أن تدخل حضرة الله، وتتمتع بشهود جماله وسناه؟!

إِنْ تُرِدْ وَضَلْنَا فَمَوْتُكَ شَرْطٌ لَا يَنَالُ الْوِصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلَةٌ  
وقال الحلاج في هذا المعنى:

لَمْ أُسَلِّمِ النَّفْسَ لِأَسْقَامِ تُؤَلِّفُهَا إِلَّا لِعِلْمِي بَأَنَّ الْوِصَلَ يُخَيِّبُهَا  
وقال أيضاً:

أُقْتَلُونِي يَا ثِقَاتِي إِنَّ فِي قَلْبِي حَيَاتِي  
وَحَيَاتِي فِي مَمَاتِي وَمَمَاتِي فِي حَيَاتِي  
أَنَا عِنْدِي: مَحْوُ دَاتِي مِنْ أَجْلِ الْمَكْرَمَاتِ  
وَبَقَائِي فِي صِفَاتِي مِنْ قَبِيحِ السَّيِّئَاتِ  
وقال أيضاً:

إِنْ كَانَ سَفْكَ دَمِي أَقْصَى مُرَادِكُمْ فَمَا عَلَتْ نَظْرَهُ مِنْكُمْ بِسَفْكَ دَمِي  
وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: (لا يدخل على الله إلا من باين، أحدهما: الموت الحسي، وهو الموت الطبيعي، والآخر: الموت الذي تعنيه هذه الطائفة). هـ. وهو موت النفوس، فمن لم تمت نفسه لم تَحْيَى روحه.

وقال بعض العارفين: (لا يحصل الدخول على الله حتى يموت أربع موتات: موت أحمر، وموت أسود، وموت أبيض، وموت أخضر. أما الموت الأحمر فهو مخالفة الهوى، وأما الموت الأسود فهو تحمل الأذى، وأما الموت الأبيض فهو الجوع - أي: المتوسط - وأما الموت الأخضر فهو لبس المرقات، وطرح الرقاع بعضها على بعض).

قلت: ورأس الهوى وعنصره هو حب الجاه وطلب الرئاسة. فمن نزل إلى أرض الخمول، وخرق عوائد نفسه فيه، انخرقت له الحجب، ولاحت له الأنوار، وأشرقت عليه الأسرار في مدة قريبة، وبالله التوفيق وهو إلهادي إلى سواء الطريق. @# { وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } \*# { ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }

قلت: { جهرة } مصدر نرى؛ لأنه نوع منه، أي: نرى الله رؤية عيان، أو حال من الفاعل، أي: نراه معانين له، أو من المفعول؛ أي: نراه معانية.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا أيضاً، يا بني إسرائيل، حين قلتُم لموسى عليه السلام لما رجع من الطور، ووجدكم قد عبدتم العجل، فأخذ منكم سبعين رجلاً ممن لم يعبد العجل، وذهب يعتذر، فلما سمعتم كلامي أنكرتموه وجرتموه، وقلتُم: { لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ } أن هذا كلام الله { حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ

الصَّاعِقَةَ { بسبب طلبكم ما لا طاقة لكم به، فغبتم عن إحساسكم، وذهبت أرواحكم، { وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } ما فعل بكم، فاستشفع فيكم موسى عليه السلام وقال: يا  
{ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا }  
[الأعراف: 155] كيف أرجع إلى قومي بغير هؤلاء؟ { ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْد مَوْتِكُمْ }  
وعشتم زماناً بعد ذلك { لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } هذه النعمة، وتقومون بحسن الخدمة،  
فتقروا بربوبيتي، وتصدقوا برسلي، فلم تفعلوا.

الإشارة: من شأن الأرواح الطيبة التشوق إلى الحضرة، والتشوف إلى العيان والنظرة، فلا يحصل لها كمال التصديق والإيقان إلا بعد الشهود والعيان، فلما علم الحق سبحانه من بعض الأرواح صدق الطلب، رفع عنها الحجاب، وفتح لها الباب، فأخذتها صاعقة الدهشة والحيرة، ولم تطق صدمة المشاهدة والنظرة، فغابت عن الأشكال والرسوم في مشاهدة أنوار الحي القيوم، ثم مَنَّ عليها بالبعث من موت الفناء إلى حياة البقاء، فأمنت من الشقاء، فحصلت لها الحياة الدائمة والسعادة السرمدية. فالصاعقة عند أهل الفن هي عبارة عن الغيبة عن النفس، وفناء دائرة الحس، وهي شهود عدمك لوجود الحق، والبعث منها هو مقام البقاء، وهو شهود الأثر بالله. وهو مقام حق اليقين. وحاصلة: شهود وجود الحق وحده، لا عدمك ولا وجودك، " كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان ". وبالله التوفيق.

@# { وَظَلَلْنَا عَلَيْكُمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }  
#

قلت: { الْعَمَامَ } : السحاب الرقيق، و { الْمَنَّ } هنا: العسل، و { السَّلْوَى } قيل: اللحم، والأصح: أنه اسم طائر كالسماني.

يقول الحق جلَّ جلاله: في تذكير بني إسرائيل ما أنعم به عليهم في جبال التيه: { و { ظَلَلْنَا عَلَيْكُمُ الْعَمَامَ } يقيكم من الحر في أيام التيه، { وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ } وهو عسل كان ينزل على الشجر من الفجر إلى الطلوع، فيعرفون منه ما شاءوا، { و { أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ السَّلْوَى } ، وهو طير كانت تحشره الجنوب، فينزل عليهم، فيأخذون منه ما شاءوا، ولا يمتنع منهم، فيذبحون ويأكلون لهما طرياً، فقلنا لهم: { كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا } بمخالفتهم أمر نبيهم وسوء أدبهم معه، حيث قالوا:  
{ فَأَذْهَبَ أَتَتْ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ }  
[المائدة: 24]، فعاقبهم بالتيه أربعين سنة، يتيهون في مقدار خمسة فراسخ أو ستة. { وَلَكِن } ظلموا أنفسهم؛ حيث أوقعوها في البلاء والمحنة.

رُوي أنهم لما أمروا بجهاد الجبارين، جنوا وقالوا تلك المقالة، فدعا عليهم سيدنا موسى عليه السلم فوقعوا في التيه بين مصر والشام، فكانوا يمشون النهار فيبيتون حيث أصبحوا، ويمشون الليل فيصبحون حيث أمسوا، فقالوا لموسى عليه السلام: من لنا بالطعام؟ فأنزل الله عليهم المن والسلوى، قالوا: كيف بحر الشمس؟ فظلل عليهم الغمام، قالوا: بم نستصبح بالليل؟ فضرب لهم عمود نور

في وسط محلثهم، قالوا: من لنا بالماء؟ فأمر موسى عليه السلام بضرب الحجر، فقالوا: من لنا باللباس؟ فأعطوا ألابئلى لهم ثوب، ولا يخلق، ولا يدرن، وأن ينمو بنمو صاحبه، وقيل: كساهم مثل الظفر، { وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [البقرة: 284].

الإشارة: لما انفصلت الأرواح من عالم الجبروت، كانت على الطهارة الأصلية، والنزاهة الأزلية، عالمة بأسرار الربوبية وعظمة الألوهية، لكن لم يكن لها إلا جنة الحرية، دون جنة العبودية، فلما أراد الحق تعالى أن يمتعها بجننتين عن يمين وشمال، أمرها بالنزول إلى أرض العبودية، في ظلل من غمام البشرية، فمن عليها بحلاوة المشاهدات وسلوان المناجات، وقال لها: { كلوا منطويات ما رزقناكم } من طرائف العلوم، وفواكه الفهوم، هذا لمن اعتنى بروحه فاستكمل فضيلتها، وخالف هواها، فنفذت من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، فلم تنحجب بسحب الآثار إلى نفوذ شهود الأنوار، بل غابت عن شهود الآثار بشهود الأنوار. أما من حجت عن شهود الأنوار بالوقوف مع الآثار، ووقعت في شبكة الحطوط والشهوات، وربطت بعقال الأسباب والعادات، فقد ظلمت نفسها، وبخست حقها من مشاهدة مولاها، حتى استتعت عليها دائرة الحس، ولم تنفذ إلى المشاهدة والأنس. وأنشدوا:

كَمَلَّ حَقِيقَتِكَ الَّتِي لَمْ تَكْمُلِ وَالْجِسْمَ صَعَّهٗ فِي الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ  
أَتَكْمَلُ الْقَانِي وَتَتْرُكُ بَاقِيًا هَمَلًا وَأَنْتَ بِأَمْرِهِ لَمْ تَحْفَلِ؟  
فَالْجِسْمُ لِلنَّفْسِ النَفِيسَةِ آلَةٌ مَا لَمْ تُحَصِّلْهُ بِهَا لَمْ يَحْضَلِ  
يَفْتَى، وَتَبْقَى دَائِمًا فِي عَيْبَةٍ أَوْ شَهْوَةٍ وَنَدَامَةٍ لَا تَنْجَلِي  
أَعْطَيْتَ جِسْمَكَ خَادِمًا فَخَدَمْتَهُ أَمْ لَمْ تَمْكُنْ الْمَفْضُولَ رِقًّا الْأَفْضَلَ؟  
شَرَّكَ كَثِيفٌ أَنْتَ فِي أَحْبَالِهِ مَا دَامَ يُمَكِّنُكَ الْخَلَّاصَ فَعَجَّلِ  
مَنْ يَسْتَطِيعُ بَلْوَعَ أَعْلَى مَنَزَلٍ مَا بِاللَّهِ يَرْضَى بِأَدْنَى مَنَزَلٍ!

#@ { وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ } #\* { قَبَدَلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ }

قلت: { حطة } : خير مبتدأ مضمرة، أي: أمرنا حطة، أي: تواضع وانحطاط، وقال هنا: (فكلوا)، وفي الأعراف بالواو؛ لأن الأكل مرتب على الدخول، بخلاف السكنى، فإنها تفارق الأكل، فكانه مأمور به.

يقول الحق جل جلاله: وإذكروا يا بني إسرائيل حين قلنا لأسلافكم بعد أن خرجوا من التيه: { ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ } أعني بيت المقدس، أو أريحاء، بعد أن تجاهدوا أهلها، { فكلوا } من نعم ما فيها أكلاً واسعاً؛ لأنها مخصصة، { وادخلوا } باب القرية راكعين، تواضعاً وشكراً، { وقولوا } في دخولكم: شأننا { حطة } ، أي: شأننا الانحطاط والتواضع لله، فإن فعلتم ذلك { نغفر لكم خطاياكم وستزيد } من امتثل أمرنا، وأحسن الأدب معنا، خيراً كثيراً، في الدنيا والآخرة، { قبدل الذين ظلموا } منهم قولاً غير الذي أمروا به، وقالوا مكان حطة: حنطة، حبة في شعرة،

{ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا { عَذَابًا { مِّنَ السَّمَاءِ } قيل: هو الطاعون، فمات منهم سبعون ألفاً في يوم واحد، بسبب فسقهم وتعديهم الحدود.

الإشارة: يقول الحق سبحانه للأرواح، لما كمل تطهيرها من البقايا، وتكاملت فيها المزايا: ادخلوا هذه الحضرة المقدسة، وتنعموا فيها حيث شئتم بالمشاهدة، والمكالمة، والمواجهة، والمساورة، والمفاتحة، والمناجاة، وادخلوا بابها أدلاء صاغرين، فلا دخول للحضرة المقدسة إلا من باب الذل والافتقار، وأنشدوا:

وَمَا زُمْتُ الدخولَ عَلَيْهِ حَتَّى حَلَلْتُ مَحَلَّةَ العبدِ الذليلِ  
وأغمضتُ الجفونَ على قَدَاها وَصُنْتُ النَّفْسَ عن قَالَ وقيلِ  
وقيل لأبي يزيد: يا أبا يزيد، خزائنا معمورة بالخدمة، أتتني من كوة الذل والافتقار. وفي رواية قيل له: يا أبا يزيد: تقرب إلينا بما ليس عندنا، فقال: يا رب؛ وما الذي ليس عندك؟ فقال: الذل والافتقار. هـ. وقال شيخ المشايخ القطب الجيلاني رضي الله عنه: (أتيت الأبواب كلها، فوجدت عليها الزحام، فأتيت من باب الذل والافتقار، فوجدته خالياً، فدخلت منه، وقلت: هلموا). أو كما قال. وقال الشاعر:

تَدَلُّ لِمَنْ تَهْوَى فَلَيْسَ الهوى سَهْلٌ إِذَا رَضِيَ المَحْبُوبُ صَحَّ لَكَ الوُصْلُ  
وقولوا عند دخولكم الحضرة: شأننا حطة؛ أي: شأننا السفليات دون العلويات، فالسلوك من باب السفليات واجب، وإلا فلا وصول، فكل من سلك من باب السفليات طهر من البقايا، وتكاملت فيه المزايا، فيصلح لدخول الحضرة، وينخرط في سلك أهل الشهود والنظرة، فيكون من المحسنين المقربين، فلا جرم أن الله يزيد ترقياً في العلوم والأسرار، في هذه الدار، وفي تلك الدار، بخلاف من خالف ما أمر به من سلوك طريق السفليات، وتعاطي الأمور العلويات، قبل كمال التربية؛ فإنه يجرع إلى غم الحجاب، وسوء الحساب؛ بسبب خروجه عن طريق الأحباب، وسلوكه طريق أهل الغفلة والارتباب، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

#@ { وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ {  
#

قلت: { استسقى } طلب السقي، و " ال " في { الحجر } للعهد، وهو الحجر الذي فرّ بثوبه، أو حجر خفيف مربع مثل رأس الرجل، أمر أن يحمله معه، فكان يضعه في مخلاته، فإذا احتاج الماء ضربه، قيل: كان من رخام، وقيل: كان كدّان، كان فيه اثنتا عشرة حفرة، تنبع من كل حفرة عين ماء عذب، على عدد الأسباط، فإذا أراد حمله ضربه فجفّ الماء منه، وقيل: للجنس، فكان يضرب أيّ حجر وجد، فتفجر منه عيوناً، ثم تسير كل عين في جدول إلى سبط، فقالوا: إن أفضينا إلى أرض لا حجارة فيها عطشنا، فأوحى إليه: أن كلمه يطعك لعلمهم يعتبرون.

و { فَأَنْفَجَرَتْ } معطوف على محذوف؛ أي: فضرب فانفجرت، والعثو: أشد الفساد، عَثًا يَعْتُوا عثوا، وعثى يعثي عثياً، وعاث يعيث عيثاً، و { مفسدين } حال مؤكدة لعاملها، أو مقيدة، إن قلنا: إن العثو أعم من الفساد، لصدقه على القصاص، فإنه عثر غير فساد. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا يا بني إسرائيل حين عطشتم في التيه، فطلبتم من موسى السقي، فاستسقى لكم، { فقلنا } له: { اضرب بعصاك } التي أخذتها من شعيب عليه السلام، وكانت من آس الجنة، وورثت عن آدم عليه السلام، فيها عشرة أذرع، فضرب { فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا } على عدد أسباطكم، فكل عين تجري إلى سبط { قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ } { مُعِينًا، لا يعدو أحد على أحد، فقلنا لهم: { كُلُوا } من المن والسلوى، { واشربوا } من الماء الذي رزقناكم، ولا تطغوا بالنعم فتفسدا في الأرض بالمعاصي والذنوب، فيكون ذلك كفرًا مستوجبًا للسلب بعد العطاء، رُوي أنهم كانوا ستمائة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلًا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الأرواح إذا تطهرت من الأكدار، وتحررت من الأغيار، وأشرقت عليها الأنوار والأسرار، وكمل تطهيرها، وتمت تصفيتها، كان صاحبها آية من آيات الله، وحجة من حجج الله، إذا ضرب بعصا همته القلوب القاسية أو الأنفس الأبية، لانت وانفجرت بالعلوم القدسية، كل واحد بما يليق به، فمنها من تنبع بالعلوم الوهية، ومنها من تنبع بالعلوم الرسمية، ومنها من تنبع بالكرامات وخوارق العادات، ومنها من تنبع منها المكاشفات والاطلاعات، قد علم كل أناس مشربهم، على حسب ما سبق لهم، فيقول الحق تعالى لهم: كلوا من ثمرات ما اجتنبتم من العلوم والمعارف التي أوليناكم، واشربوا من مناهل المنازل التي فيها أقمناكم، أو كلوا من ثمرات المعرفة ما تتقوى به معانيكم، واشربوا من خمر الحبيب ما تغيبوا به عن وجودكم، ولا تتعدوا أطواركم من القيام بوظائف العبودية، ومعرفة عظمة الربوبية، فتكونوا لسلب ما أولاكم متعرضين، ولعقوبته مستحقين، عائذًا بالله من السلب بعد العطاء. أمين.

#@ { وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلْنَا طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّنَا يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَصُرِّبْتُ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُ وَبَعْصَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَنَعْتَلُونَ التَّيْبِينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَالِكُمْ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } #

قلت: المراد بالطعام الواحد: هو المن والسلوى. ووحدته لأنه لا يختلف ولا يتبدل، كقولهم: طعام مائدة الأمير واحد، والبقل: جميع الخضر، كالنجم والكرب والكرات وغير ذلك. والقثاء: جمع قثاءة، وهي الخيار والفقوس والبطيخ وغير ذلك من الفواكه التي تستنبت، والفوم قيل: الحنطة، والأصح أنه الثوم. قال الشاعر:

أَنْتُمْ أَنْاسٌ لِّئَامُ الْأُصُولِ طَعَامُكُمْ الْفُومُ وَالْحَوْقُلُ  
أراد: الثوم والبصل. والعرب تعاقب بين الفاء والثاء فتقول: معافير ومعافير، وتقول للقبر: جدث وجدف.

والعدس: معلوم، روى عليّ - كرم الله وجهه - عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " عليكم بالعدس، فإنه مبارك مقدس، وإنه يرفق القلب، ويكثر الدمعة، وإنه بارك فيه سبعون نبيًا، آخرهم عيسى ابن مريم ".

يقول الحقّ جلّ جلاله: واذكروا أيضاً حين { قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَيَّ طَعَامٍ وَاحِدٍ } حين مللتم من العسل واللحم، وملتم إلى عَكْرِكُمُ السَّوءِ، أي: ما ألوفكم وشهواتكم السيئة، لأنهم كانوا فلاحين، فقلتم: { ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ } ، أي: من جنس ما ينبت الله فيها من البلب والفتاء والعدس والفوم والبصل، قال موسى عليه السلام: { اُنْتَسَبِدِلُونِ الَّذِي هُوَ اَدْنَى } وأخس من الثوم والبصل وغيرها، { بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ } من اللحم والعسل، { اهْبِطُوا } إلى مصر من الأمصار، تجدوا ما تشتهون، إذ لا يوجد ذلك إلا في القرى والأمصار، أو { اهْبِطُوا مِصْرًا } التي كنتم فيها أذلاء مستبعبدين، تجدوا حظوظكم وشهواتكم؛ لأنّ الحظوظ والشهوات منوطة بالذل والهوان، { وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ } ، أي: ألزموها لزوم الدرهم المضروب لضربه ونقشه، فالذلة: ضرب الجزية، والمسكنة: فقر النفس وإن كان موسراً.

وإنما ضُربت عليهم الذلة والمسكنة لأنهم لم يرضوا بتدبير الحق، ولم يقنعوا برزقه، فكل من لم يقنع بقسمته وسئم من اتحاد رزقه، خيف عليه من ضرب الذل والمسكنة، وانقلبوا أيضاً { يَعْصِبُ مِنَ اللَّهِ } حيث نقضوا العهود، وتعدوا الحدود، فكفروا وطغوا وقتلوا الأنبياء بغير حق، وسبب ذلك: تمردهم في العصيان، فإن المعاصي تجر بعضها إلى البعض حتى تنتهي إلى الكفر، والعياذ بالله من سخطه وعضبه.

الإشارة: كل من لم يقنع بالقسمة الأزلية، ولم يقم حيث أقامته القدرة الإلهية، بل جنح إلى حظوظه وهواه، وحرص على تحصيل أغراضه ومناه، قيل له: أنتستبدل تدبيرك - الذي هو أدنى - بتدبير الحق - الذي هو خير -؟ أترك تدبير الحكيم العليم، الرؤوف الرحيم، إلى تدبير عقلك الضعيف الجاهل الخسيس اللئيم؟! فعسى أن تدبر شيئاً يكون لك فإذا هو عليك. وعسى أن تأتيك المسار من حيث تعتقد المضار، وتأتيك المضار من حيث ترتجي المسار. ولله درّ القائل:

وَكَمْ رُمْتُ أَمْرًا خِزْتِ لِي فِي انْصِرَافِهِ، فَلَا زِلْتِ لِي مِنِّي أَبْرَ وَأَرْحَمَا  
عَزَمْتُ عَلَيَّ أَلَّا أَحْسَنَ بِحَاطِرٍ عَلَى الْقَلْبِ إِلَّا كُنْتُ أَنْتَ الْإِمْقَدَمَا  
وَأَلَا تَرَانِي عِنْدَ مَا قَدْ تَهَيْتَنِي؛ لِكَوْنِكَ فِي قَلْبِي كَبِيرًا مُعْطَمًا

@يا من لم يقنع بتدبير مولاه، ومال إلى نيل حظه وهواه، اهبط إلى أرض الحظوظ والشهوات تجد فيها ما ألفته نفسك من عوائد السيئات. يا من أخذت نفسه إلى الهوى ومتابعة الشيطان، كيف تستبدل العز الدائم بالذل والهوان؟! وأنشدوا:

لَا تَتَّبِعِ النَّفْسَ فِي هَوَاهَا إِنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَا هَوَانٌ  
قال في التنوير: فائدة: اعلم أن بني إسرائيل لما دخلوا التيه، ورزقوا المنّ والسلوى، واختار الله لهم ذلك رزقاً، رزقهم إياه، يبرز عن عين المنّة، من غير تعب منهم ولا نصب، فرجعت نفوسهم الكثيفة لوجود، العادة، والغيبة عن شهود تدبير الله، على طلب ما كانوا يعتادونه، فقالوا: { ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض } الآية. { قال أنتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم وضرب عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله } ، وذلك لأنهم تركوا ما اختار الله لهم، مائلين لما اختاروا لأنفسهم، فقيل لهم عن طريق

التوبيخ: { أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير }؟ فظاهر التفسير: أتستبدلون الفوم والعدس والبصل بالمنّ والسلوى؟ وليس النوعان سواء في اللذة ولا في سقط المشقة وسر الاعتبار، أتستبدلون مرادكم لأنفسكم بمراد الله تعالى لكم؟ { أتستبدلون الذي هو أدنى } وهو ما أردتموه، { بالذي خير }، وهو ما أرادته الله لكم؟ { اهبطوا مصراً } فإن ما اشتهيتموه لا يليق إلا أن يكون في الأمصار، وفي سر الخطاب: اهبطوا عن سماء التفويض وحسن التدبير منا لكم، إلى أرضي التدبير والاختيار منكم لأنفسكم، موصوفين بالذل والمسكنة؛ لاختياركم مع اختيار الله، وتدبيركم لأنفسكم مع تدبير الله. ه المراد منه.

ولما ذَكَرَهُمُ الْحَقُّ تَعَالَى بِالنِّعْمَةِ، وَوَبَّخَهُمْ عَلَى ارْتِكَابِ الْآثَامِ، رَعَّبَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ.

@# { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }  
#

قلت: { إن } ناصبة مؤكدة، وخبرها: جملة { من آمن } أو { فلهم أجرهم }. و { من آمن } بدل من اسمها، أو محذوف، والموصول: مبتدأ؛ أي: إن الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين هادوا كذلك. و { هادوا }؛ تهودوا، أي: دخلوا في اليهودية. وسمّوا يهوداً؛ إما نسبة لأبيهم الأكبر (يهودا بن يعقوب)، أو من هاد، إِذَا تَابَ؛ لأنهم تابوا من عبادة العجل.

والنصارى: جمع نصران، وسمّوا بذلك إما لنصرهم المسيح عليه السلام، أو لسكناهم معه في قرية يقال لها: (نصران)، والصابئون: طائفة من أهل الكتاب، خرجوا عن دين اليهودية وعبدوا الكواكب، يقال: صبا يصبو، إذا مال وخرج من دين إلى دين.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا } بمحمد صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا بموسى، والذين آمنوا بعبسى - عليهما السلام -، والذين خرجوا عن دينهم وصبوا، { مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } وتبع محمداً صلى الله عليه وسلم وعمل بشريعته، { فلهم أجرهم عند ربهم } إذا قدموا عليه بالنعيم المقيم، والنظر إلى وجهه الكريم، { وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ } حين يخاف الكفار، { وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } حين يحزن المفرطون والأشرار؛ إذ لا يلحقهم وبال ولا يفوتهم نوال. وبالله التوفيق.

الإشارة: إن الذين آمنوا إيماناً لا يختلجه وهم، ولا يطرق ساحته شك ولا ريب، إما عن برهان قاطع، أو عن شهود ساطع، والذين تابوا عن هواجس الخواطر وغفلات الضمائر، والذين نصرروا الدين، وشيّدوا منار شريعة المسلمين، والذين صبوا إلى الحبيب، ومالوا عن كل بعيد وقريب، فهؤلاء الذين سبقت لهم من الله العناية، وهبت عليهم ريح الهداية، جمعوا بين تزيين البواطن بأنوار الإيقان، وتزيين الظواهر بأنواع الطاعة والإذعان، فلا جرم أنهم، إذا قدموا على ربهم، أجل منصبتهم، وأجل ثوابهم، وأعلى مقامهم، فأولئك أولياء الله الذين { لا خوف عليهم ولا هم يحزنون }.

فالمخصوصون بالعناية أربعة: قوم أقامهم الحق تعالى لتنمية الإيمان وتربية الإيقان، إما عن دليل وبرهان - وهم أهل النظر والاعتبار، - وإما عن شهود وعيان -

وهم أهل الشهود والاستبصار -، وقوم أقامهم الحق تعالى لتصفية نفوسهم وتركية أحوالهم بالتوبة، والإقلاع عن كل وصف مذموم، وهم السائرون والصابون، وقوم أقامهم لنصر الدين وإظهار شريعة المسلمين، إما بتقرير قواعده أو جهاد معانده، وهم العلماء والمجاهدون، وقوم أقامهم لخدمته، وملأ قلوبهم بهيبته، وهم العباد والزهاد، مالوا عن الشهوات وتانسوا به في الخلوات، هجرو الأوطان وفارقوا الأحباب والإخوان، صبوا إلى محبة الحبيب وتلذذوا بمناجاة القريب، فهؤلاء المخصوصون بعين العناية، المحفوظون بغاية الرعاية، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس. حققنا الله بمقام الجميع بمئه وكرمه. أمين.

#@ { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } \*# { ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ } \* { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُفُّوا قِرْدَةً خَاسِئِينَ } \* { فَجَعَلْنَاهَا تَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلَفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ }

قلت: { لولا } حرف امتناع لوجود، تلزم الدخول على المبتدأ، وخبرها واجب الحذف عند سبويه، أي: لولا فضل الله عليكم ورحمته موجودان، وقال الكوفيون، فاعل بمحذوف: أي: لولا أن ثبت فضل الله عليكم ورحمته، و(لكنتم): جوابها.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا يا بني إسرائيل حين { أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ } أن تقبلوا تكاليف التوراة، وكانت شاقة عليهم، فلما أبيتهم قبولها، قلنا الطور، ورفعناه فوقكم على مقدار عسكركم، كالظلة، وقلنا لكم: { خُذُوا بِهَا آيَاتِكُمْ } من التوراة بجد واجتهاد، { واذكروا ما فيه } من الوعظ والتذكير { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } الله، فتفوزون بالخير الكثير، فقبلتم ذلك كرهاً { ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ } وأعرضتم بعد لك، فسفكتم الدماء، وقتلتم الأنبياء، { فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } بتوفيقكم للتوبة، { وَرَحْمَتُهُ } بقبولها منكم، فخرستم الدنيا والآخرة.

{ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ } ما جرى للذين { اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ } في زمن داود عليه السلام، وذلك في قرية يقال لها: " أيلة "، كانت على شاطئ البحر، وقد نهوا عن الاصطياد يوم السبت، فكانت الحيتان تخرج يوم السبت سُرعاً، فتُخرج خراطيمها للبر، فإذا كان يوم الأحد دخلت في البحر، فحفرها حياضاً، وشرعوا إليها جدوال، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد، فلما لم يُعاقبوا على ذلك أحلوا يوم السبت، فانقسمت القرية على ثلاث فرق: قوم نهوا، وقوم سكتوا، وقوم اصطادوا، فُمسِخ من اصطاد قردة وخنازير؛ الشبان قردة، والشيوخ خنازير، فبقوا ثلاثة أيام وماتوا. فجعلنا تلك الفعلة التي فعلنا بهم - { تَكَالًا } وزجراً { لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا } في زمانها، وما خلفها؛ من يأتي بعدها، { وموعظة }؛ وتذكيراً { للمتقين } من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

الإشارة: اعلم أن المرادين إذا دخلوا في يد شيخ، وأخذوا عنه العهد، حملهم من أعباء التكليف وخرق العائد ما تموت به نفوسهم، وتحيا به قلوبهم، كذبح النفوس وخط الرؤوس ودفع الفلوس، فإذا هموا بالتقصير، ظلل عليهم جبل همته، وأدار عليهم يد حفظه ورعايته، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن: (والله لا يكون الشيخ شيخاً حتى تكون يده مع الفقير أينما ذهب). والمراد باليد: الهمة والحفظ، ولا

يزال الشيخ يرسلهم بهذه التكاليف، وبحضهم على الأخذ بها، والاجتهاد في العمل بها، حتى تموت نفوسهم وتحيا قلوبهم، وترسخ معرفتهم، وتكمل تربيتهم، فحينئذ ينتقلون إلى روح وريحان في جنات الشهود العيان.

قلت: وقد كان شيخنا يرسل لنا البطاقات في حال البدايات، فما كانت أفتحها حتى ترتعد نفسي مما فيها، لأنها تعلم أنه ما يرسل لها إلا ما فيه موتها، فلولا فضل الله علينا ورحمته - حتى قوانا على العمل بما فيها - لكنا من الخاسرين، ولقد أخطأت العناية قوماً، فتعدوا حدود الشيوخ، أو خرجوا عن دائرتهم قبل كمال تربيتهم، فمسخت قلوبهم، وانمحت في ديوان الولاية رسومهم، جعل الله ذلك عبرة لغيرهم، وزاجراً لمن حذا حذوهم، نعوذ بالله من السلب بعد العطاء، وكفران النعم وحرمان الرضى، وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق.

#@ { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُرُوءًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } #\* { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالِ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا قَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ } \* { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقْعُ لَوْثُهَا تَسْرُّ النَّاطِرِينَ } \* { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن بَشَاءَ اللَّهِ لَمُهْتَدُونَ } \* { قَالِ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْتَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْنَا بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ }

قلت: الفارض: المسنة التي لا تلد، يقال: فرضت البقرة، تفرض فروصاً، إذا أسنت. البكر: الصغير التي لم تلد، العوان: المتوسطة بين المسنة والصغيرة، والفاقع: الناصع الصفرة، يقال: أصفر فاقع، وأسود حالك، أي: شديد السواد، وأصل شية: وشية، كعدة، حذفت فاؤها وعوض عنها التاء، والوشى: الرقم.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا يا بني إسرائيل حين { قال موسى لقومه } لما تخاصموا إليه في قتيل وجد في قرية ولم يدر قاتله، وذلك أن رجلاً فقيراً من بني إسرائيل قتل قريباً له كان موسراً ليرثه، ثم رماه في قرية أخرى، ثم ذهب يطلب دمه، فترافعوا إلى موسى عليه السلام فقال لهم بوحى: { إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة } ، وأبهم الأمر عليهم، { قَالُوا أَتَتَّخِذُونَا هُرُوءًا } أي: مهزوءاً بنا، حيث نسالك عن بيان القائل وأنت تأمرنا أن نذبح بقرة، وهذا من تعنتهم وسوء أدبهم. { قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ }؛ إذ لا يستهزئ بأمر الدين إلا الجاهل.

فلما رأوا جدّه { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ } ، هل هي كبيرة أو صغيرة أو متوسطة؟ { قَالِ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا قَارِضٌ } أي: كبيرة، { وَلَا بَكْرٌ } أي: ولا صغير { عَوَانٌ } متوسطة بين ما ذكر من الصغر والكبر، { فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ } ، فإن الله يبين لكم القاتل، { يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقْعُ لَوْثُهَا } ناصع صفرتها { تَسْرُّ النَّاطِرِينَ } لسمنها وبهجة لونها، { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ } ، فإن البقر الصفرة كثير، وقد تشابه علينا أمرها؟ { قَالِ إِنَّهُ } تعالى يقول: إنها مسلمة من العمل ليست ذلولاً، أي: مذللة بالعمل لا { تُثِيرُ } أي: تقلب { الْأَرْضَ } ولا تَسْقِي الْحَرْتَ { بالسانية. } مُسَلَّمَةٌ { من العيوب كلها، } لا شِيَةَ فِيهَا { أي: لا رقم فيها يخالف الصفرة.

فلما تبين لهم الأمر { قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ } الواضح، فوجدوها عند شباب كان بيد أمه، قد استودعها له أبوه في غبضة، فاشتروها منه بملء جلدتها ذهباً، أو بوزنها، { فذبحوها } ، وضربوا القتيل بجزء منها، فجلس وعروقه تسيل دماً، وقال: قتلتني ابن عم لي، ثم رجع، { وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ } لكثرة ترددهم، أو لفحش غلوها. قال عليه الصلاة والسلام: " لو ذبحوا أدنى بقرة لكفتهم لكن شددوا فشدد الله عليهم ".

#@ { وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } \*# { فَقُلْنَا ضَرِبُوهُ بَبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّبُ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }

قلت: حق هذه الآية أن تتقدم قبل قوله:

{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ... }

[البقرة: 67] وإنما أخرها الحق تعالى ليتوجه العتاب إليهم مرتين؛ على ترك المسارعة لامثال أمر نبيهم، وعلى قتل النفس، ولو قدمها لكانت قصة واحدة بتوبيخ واحد.

يقول الحق جل جلاله: { و } اذكروا { إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا } حرصاً على الدنيا { فَادَّارَأْتُمْ } أي: تدافعتم في شأنها، كل قربة تدفع عنها، { والله } تعالى { مُخْرِجٌ } ومبين { مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } من القتل، ومن قتله، { فَقُلْنَا } : اضربوا القتيل أو قبره { بَبَعْضِهَا } قيل: اللسان، وقيل القلب، وقيل: الفخذ أو الذنب، فضربوه فحياً، وأخبر بقاتله كما تقدم، { كَذَلِكَ } أي: كما أحيى هذا القتيل، { يُخَيِّبُ اللَّهُ الْمَوْتَى } من قبورها { وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ } الدالة على قدرته، { لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } فتعلمون أن من قدر على إحياء نفس واحد يقدر على إحياء الأنفس كلها.

واستدلت المالكية بالقصة على التدمية الحمراء، وهي قبول قول القتيل قبل موته بأن فلاناً قتله، وفيه نظر؛ لأن هذا حياً بعد موته فلا يتطرقه الكذب، واستدلت أيضاً على حرمان القتل من الإرث، وفيه نظر؛ لأن هذه شريعة من قبلنا يتطرقها النسخ، لكن ثبت في الحديث أنه لا يرث. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا أمر الشيخ المريدين بذبح نفوسهم بخرق عوائدها، فمن تردد منهم في فعل ما تموت به نفسه، كان ذلك دليلاً على قلة صدقه وضعف نهايته، ومن بادر منها إلى قتلها دل على صدقه وفلاحه ونجح نهايته، فإذا ماتت النفس بالكلية حبيت روحه بالمعرفة والمشياهدة الدائمة، فلا موت بعدها أبداً، قال تعالى: { لَا يَدُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى } [الدخان: 56]، وأما الموت الطبيعي وإنما هو انتقال من مقام إلى مقام، ومن وطن ضيق إلى وطن واسع، وأنشدوا:

لا تَطْبُؤُوا الْمَوْتَ مَوْتًا إِنَّهُ لَحَيَاةٌ، وَهُوَ غَايَةُ الْمَتَى  
لا تَرْعَكُم هَجْمَةُ الْمَوْتِ قَمَا هُوَ إِلَّا ائْتِقَالُ مِنْ هَنَّا  
فَاخْلَعُوا الْأَجْسَادَ مِشْنُ نَفْسِكُمْ تُبْصِرُوا الْحَقَّ عَيْنَانَا بَيْنَا

قلت: والسيف الذي يُجهز على النفس ويسرع قتلها هو الذل والفقر، فمن ذل نفسه بين أبناء جنسه، وخرق عوائد نفسه، وزهد في الدنيا، ماتت نفسه في طرفة عين، وحيث روحه، وظفر يقرّة العين، وهي معرفة مولاه، والغيبة عما سواه.

وكمال الوقت في ذبح النفس أن تكون متوسطة بين الصغر والكبر، فإن الصغيرة جداً لا يؤمن عليها الرجوع، والكبيرة جداً قد يصعب عليها النزوع، كاملة الأوصاف بحسن الزهد والعفاف، تسر الناظرين لبهجة منظرها وحسن طلعتها، وكذلك من كان من أهل الشهود والنظرة، تسخر مشاهدة القلوب، ويسوقها بسرعة إلى حضرة علام الغيوب، لما أقيم به من مشاهدته الملكوت، حتى إن من لاحظته تناسى أحوال البشرية، واستولت عيله أنوار الروحانية، وغابت في ذكر الحبيب عن البعيد والقريب، كما في الحديث: " أوليا الله من إذا رؤوا ذكر الله " ، وتكون أيضاً هذه النفس غير مذلة بطلب الدنيا والحرص عليها، مسلمة لا عيب فيها، ولا رق لشيء من الأثر عليها، فحينئذ تصلح للحضرة، وتتمتع بنعيم الشهود والنظرة، لم يبق لخصم الفرق معها تدارؤ ولا نزاع، بل أقر الخصم وارفع النزاع.

#@ { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }

#

قلت: القسوة والقساوة: هي الصلابة واليبوسة، كالشقوة والشقاوة، يقال حجر قاس، أي: يابس. قال الشاعر:

وَلَا أَرَى أَثْرًا لِلذِّكْرِ فِي جَسَدِي وَالْحَبْلُ فِي الْجَبَلِ الْقَاسِي لُهُ أَثْرٌ  
و { أو } للإضراب، أو بمعنى الواو، أو للتنوع، فبعضها كالحجارة وبعضها أشد.

يقول الحق جلّ جلاله: { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَكُمْ } يا معشر اليهود، وببست فلم تلم ولم تخضع، مع ما رأت من الآيات كأنفجار الحجر بالماء في التيه، وإنزال المن والسلوى، وتظليل الغمام، وإحياء الميت وغير ذلك.

قال الكلبي: (أنكروا بعد ما رأوا ذلك، وقالوا: ما قتلنا، فما كانوا قد أعمى قلباً، ولا أشد تكديماً منهم لبيهم عند ذلك) فقلوبهم كالحجارة، بل أشد، أو إن شَبَّهْتُمْ قلوبهم بالحجارة أصبتم، وبما هو أشد أصبتم، بل في الحجارة فضل عليها في اللين، فإن منها ما تتفجر { مِنْهُ الْأَنْهَارُ } الكبار، ومنها ما تشقق { فَيَخْرُجُ مِنْهُ } العيون الجارية، ومنها ما تهبط من رأس الجبل { مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ } . وفي بعض الأخبار: " كل حجر تردي من رأس جبل فهو من خشية الله " ، وقلوبكم يا معشر اليهود لا تلين ولا تخشع ولا تأتي بخير، نسال الله السلامة بمنه وكرمه.

الإشارة: كل من أساء الأدب مع أستاذه، أو خرج عن دائرته إلى غيره، قسا قلبه، وذهب حاله ولبه، فإن رجع قريباً واستدرك ما فات، لان قلبه ونهض حاله، وإلا وقع في مهاوي القطيعة، ولم يأت منه شيء، وللقب القاسي علامات: منها جمود العين، وطول الأمل، وعدم الحزن على ما فاته من الطاعات وما صدر منه من السيئات، وعدم الفرح بما يصدر منه من الطاعات، فإن المؤمن تسره حسناته وتسيئه سيئاته، ودواؤه: صحبة الفقراء الذاكرين الخاشعين، والجلوس بين يدي

العارفين الكاملين، وتعاهد الصيام، والصلاة بالليل والناس نيام، والتضرع إلى  
الحي القيوم الذي لا ينام، وللشافعي رضي الله عنه:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَصَاقَتْ مَدَاهِبِي جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سَلَمًا  
تَعَاظَمَنِي دَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا  
قوله تعالى:

{ وَإِنَّ مِنَ الْجِبَارَةِ لَمْ يَتَفَجَّرْ مِنْهُ الْأَنْهَارُ }

[البقرة: 74] كذلك القلوب القاسية إذا لانت بالإنبابة إلى ربها، والرجوع عن  
مألوفاتها، تتفجر منها أنهار العلوم، وتشقق منها أسرار الحكم، ومنها من تذوب  
من هيبة المتجلي لها، فتندك جبالها، وتزلزل أرض نفوسها، كما قال القائل:

لَوْ عَايَنْتَ عَيْنَاكَ يَوْمَ تَزَلَزَلَتْ أَرْضُ النُّفُوسِ وَدُكَّتِ الْأَجْبَالُ  
لَرَأَيْتَ شَمْسَ الْحَقِّ يَسْطَعُ نُورَهَا حِينَ التَّرَلَزَلِ، وَالرَّجَالُ رَجَالُ  
وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

#@ { أَفْتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ  
يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } #\* { وَإِذِ لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا  
وَإِذَا خَلَا بِعَعْضِهِمْ إِنَّمَا بَعْضٌ قَالُوا أُتِّحِدْتُّوهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ  
رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } \* { أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ }

قلت: ضمن الإيمان معنى الإذعان والإقرار؛ ولذلك عداه باللام، وجملة { قد كان  
{ حال من فاعل الإيمان، و { إذا لقوا { عطف على { كان } ، والتقدير:  
أفتطمعون في إيمانهم والحالة أن من سلف منهم كانوا يحرفون كلام الله، ومن  
حضر منهم الآن ينافقونكم في دين الله، فلا مطمع في إيمان من هذا وصفه.

يقول الحق جل جلاله: { أَفْتَطْمَعُونَ } يا معشر المسلمين أن يدعن لكم أهل  
الكتاب ويصدقكم { وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِّنْهُمْ } ، وهم السيعون الذين ذهبوا مع  
موسى للاعتذار، { يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ } حين كلمهم وكلفهم بمشاق التوراة،  
فحرفوا وقالوا: قال: افعلوا ما استطعتم، فإذا لم يحصل لهم الإيمان مع سماع  
الكلام بلا واسطة، فكيف يؤمن لكم هؤلاء، وهم إنما يسمعون به بواسطة الرسالة؟  
أو { يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ } في التوراة ثم يحرفونه، محوياً أو تأويلاً، كصفة سيدنا  
محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم وغير ذلك، { مِنْ بَعْدِ } ما فهموه { وَهُمْ  
يَعْلَمُونَ } أنه كلام الله، أو { وَهُمْ يَعْلَمُونَ } أنهم محرفون ومغيرون لكلام الله.

وكيف تطمعون أيضاً في إيمانهم وهم منافقون؟ { إِذَا لَقُوا } المؤمنين { قَالُوا  
آمَنَّا } ، وصفة نبيكم مذكورة في كتابنا، { وَإِذَا خَلَا بِعَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ } لامهم من  
لم ينافق، و { قَالُوا أُتِّحِدْتُّوهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ } من علم التوراة فتطلعونهم  
عليه { لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ } أي: يغلّبوكم بالحجة { عِنْدَ رَبِّكُمْ } في الدنيا والآخرة،  
فيقولون: كنتم عالمين بنبوة نبينا فجددتم وعاندتم، { أَفَلَا تَعْقِلُونَ } حتى  
تطلعوهم على ما فتح الله به عليكم. أو يقول الحق تعالى: { أَفَلَا تَعْقِلُونَ } يا  
معشر المسلمين فتطمعون في إيمانهم بعد هذه الخصال التي فيهم، قال الحق  
جل جلاله: { أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ } لا يخفى عليه شيء، بل { يَعْلَمُ } ما يسرونه  
وما يعلنونه، فيجازيهم على ما أخفوا وما أعلنوا.

الإشارة: مَنْ سبقت له المشيئة بالخذلان، وحكم عليه القدر والقضاء بالحرمان، يرجع إلى الدليل والبرهان، بعد الاستشراف على الشهود والعيان، فيرجع إلى مشاهدة الآثار والرسوم، وينسى ما كان يعهده من دقائق العلوم، سبب ذلك كَلَه: الإخلال بالأدب مع المشايخ والأصحاب، أو مفارقة الإخوان، وعدم مواصلة أهل العرفان، وضم إلى ذلك الإنكار على أولياء الله، وتحريف ما سمعه منهم من مواهب الله، فلا مطمع في رجوعه وإيابه، وقد بُعِدَ من الفتح وأسبابه، لا سيما إذا اتصف بالنفاق، إذا لقي أهل النسبة أظهر الوفاق، وإذا خلا إلى العامة أظهر الشقاق، فمثل هذا لا يرجى له فلاح، ولا يسعد بصلاح ونجاح. نعوذ بالله من ذلك.

{ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ }  
#

قلت: أمانى: جمع أمانية، وهي في الأصل: ما يُقَدَّرُهُ الإنسان في نفسه من مُنى إذا قَدَّرَ، ولذلك تطلق على الكذب، وعلى ما يتمنى وما يقرأ، قاله اليباضوي. والاستثناء منقطع، أي: لكن أكاذيب، ويقال: تمنى الرجل، إذا كذب واختلق الحديث، ومنه قول عثمان رضي الله عنه: (والله ما تَمَنَيْتُ ولا تَعَيَّنْتُ منذُ اسْلَمْتُ).

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { وَمِنْهُمْ } أي: من اليهود عوام { أُمِّيُونَ } لا يقرؤون الكتاب ولا يفهمونه، لكن يسمعون من أحبارهم { أَمَانِيٍّ } كاذبة، وأشياء يظنونها من الكتاب، ولا علم لهم بصحتها، كتغيير صفته صلى الله عليه وسلم وغير ذلك، أو مواعيد فارغة، ومطامع خاوية، سمعوها منهم، من أن الجنة لا يدخلها إلا هم، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة، وغير ذلك من أمنيتهم الفارغة وأمانيهم الباطلة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن المنكرين على أهل الخصوصية ثلاث فرق: أهل الرئاسة المتكبرون، والفقهاء، المتجمدون، والعوام المقلدون، يصدق عليهم قوله تعالى: { ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى }؛ إذ لا علم عندهم يُميزون به المحق من المبطل، وإنما هم مقلدون، فوزرهم على مَنْ حرّمهم بركة الاعتقاد، وأدخلهم في شؤم الانتقاد، ولقد أحسن " ابن البنا " حيث قال في شأن أهل الإنكار.

واعلم رعاكَ اللهُ مِنْ صَدِيقٍ أَنْ الْوَرَى حَادُوا عَنِ الْتَحْقِيقِ  
إِذْ جَهِلُوا النُّفُوسَ وَالْقُلُوبَ وَطَلَبُوا مَا لَمْ يَكُنْ مَطْلُوبًا  
وَاشْتَعَلُوا بِعَالَمِ الْأَبْدَانِ فَالْكَلُّ نَسَاءٍ مِنْهُمْ وَدَانَ  
وَأَنْكَرُوا مَا جَهِلُوا وَرَعَمُوا أَنْ لَيْسَ بَعْدَ الْجِسْمِ شَيْءٌ يُعْلَمُ  
وَكَفَرُوا وَزَنَدَقُوا وَبَدَّعُوا إِذَا دَعَاهُمُ اللَّيْبُ الْأَوْرَعُ  
كُلُّ يَرِي أَنْ لَيْسَ فَوْقَ فَهْمِهِ فَهْمٌ وَلَا عِلْمٌ وَرَاءَ عِلْمِهِ  
مُحْتَجِبًا عَنْ رُؤْيَةِ الْمَرَاتِبِ عَلَّ يُسَمَّى عَالِمًا وَطَالِبِ  
هَيْهَاتَ هَذَا كُلَّهُ تَفْصِيرٌ يَأْتِقُهُ الْحَادِقُ وَالنَّخْرِيرُ

{ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ رُؤْيَا  
بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبْتُ أَيْدِيَهُمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ }  
#

قلت: { ويل } : كلمة يستعملها كل واقع في هلكة، وأصلها العذاب والهلكة، وهو في الأصل مصدر لا فعل له، وسوغ الابتداء به الدعاء، وقال أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم: " الويلُ وادٍ في جهنم " [لو سيرت فيه جبال الدنيا لانماعت].

يقول الحق جل جلاله: { قَوْلٌ لِلَّذِينَ يُكْتَبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ } تحريفاً لكتاب الله، { وَيَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } خوفاً من أن تزول رئاستهم، وينقطع عنهم ما كانوا يأخذونه من سفلتهم، نزلت في أحرار اليهود لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، خافوا أن تزول رئاستهم، فاحتالوا في تعويق اليهود عن الإسلام، وكانت صفة النبي صلى الله عليه وسلم " حسن الوجه، حسن الشعر، أكحل العينين، ربعة " ، فغيروها، وكتبوا: طوالاً، أزرق، سبط الشعر، { قَوْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبْتُ أَيْدِيَهُمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ } ، يأخذون من سفلتهم، فهو وإن كان كثيراً في الحسن فهو، بالنسبة إلى ما استوجبوه من العذاب الأليم، قليل.

الإشارة: ينزجر بهذه الآية صنفان: أحدهما: علماء الأحكام، إذا أفتوا بغير المشهور، رغبة فيما يقبضون على الفتوى من الحطام الفاني، وكذلك القضاة إذا حكموا بالهوى، رغبة فيما يقبضون من الرشا، أو يحصلونه من الجاه، { قَوْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبْتُ أَيْدِيَهُمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ } الثاني: أهل الرئاسة والجاه من أولاد الصالحين وغيرهم، فإنهم إذا رأوا أحداً قام بولاية أو نسة خافوا على زوال رئاستهم، فيحتالون على الناس بالتعويق عن الدخول في طريقته، فيكتبون في ذلك مسفسطات وترهات، يُنْفِرُونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، { وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [التوبة: 32].

#@ { وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } \*# { بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَخَاطَبَ بِهَا حَسْبًا إِنَّهُ فَاؤْلَائِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } \* { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

قلت: { بلى } : حرف جواب كنعم، والفرق بينهما أن { بلى } لا يقع إلا في جواب النفي وبصير إثباتاً، تقول: ألم يأت زيد؟ فتقول: بلى. أي: أتى، ومثله: { قالوا لن تمسنا النار } فقال تعالى: { بلى } أي تمسكم، بخلاف نعم؛ فإنها لتقرير ما قبلها نفيًا أو إثباتاً، فإذا قيل: ألم يأت زيد؟ فقلت: نعم، أي لم يأت، وإذا قيل: هل أتى زيد فقلت: نعم، أي أتى. وقد نظم ذلك بعضهم فقال:

" نعم " لتقرير الذي قبلها إثباتاً أو نفيًا، كذا قرروا  
" بلى " جواب النفي لكنه بصير إثباتاً، كذا حرروا

يقول الحق جل جلاله: { وَقَالُوا } أي: بنو إسرائيل في أمانتهم الباطلة: { لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً } أربعين يوماً مقدار عبادة العجل، ثم يخلفنا فيها المسلمون. قال الحق جل جلاله: { قُلْ } لهم يا محمد: { أَتَّخَذْتُمْ } بذلك عهداً عند الله { قُلْ } يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } - { بلى } { تمسكم النار وتخلدون فيها؛ لأن { مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً } أي: كفرأ ومات عليه،

{ وَأَخَاطَطُ بِهِ حَاطِئُهُ } أي: أهدقت به، واستولت عليه، { فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } - { وَالَّذِينَ آمَنُوا } بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم { وَعَلِمُوا } بشريعته المطهرة الأعمال { الصالحات } { وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } هذه عادته تعالى؛ إذا ذكر فريقاً شفع بضده ترغيباً وترهيباً وبالله التوفيق.

الإشارة: اعلم أن كثيراً من الناس يعتمدون على صحبة الأولياء، ويطلقون عنان أنفسهم في المعاصي والشهوات، ويقولون: سمعنا من سيدي فلان يقول: من رآنا لا تمسه النار. وهذا غلط وغرور، وقد قال - عليه الصلاة والسلام - لابنته: " يا فاطمة بنت محمد، لا أعني عنك من الله شيئاً، اشترى نفسك من الله " وقال للذي قال: ادع الله أن أكون رفيقك في الجنة فقال له: " أعني على نفسك بكثرة السجود " نعم، هذا المقالة: إن صدرت من ولي متمكن مع الله فهي حق، لكن بشرط العمل ممن رآه بالمأمورات وترك المحرمات، فإن المأمول من فضل الله، ببركة أوليائه، أن يتقبل الله منه أحسن ما عمل، ويتجاوز عن سيئاته، فإن الأولياء المتمكنين اتخذوا عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده؛ وهو أن من تعلق بهم وتمسك بالشرعية شفعوا فيه.

والغالب على من صحب أولياء الله المتمكنين - الحفظ وعدم الإصرار، فمن كان كذلك لا تمسه النار، وفي الحديث: " إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا لَمْ يَصْرُه دَنِبًا " ، يعني: يلهم التوبة سريعاً، كما قيل لأهل بدر: " افعلوا ما شئتم فقد عقرت لكم " . ولا يتخذ عند الله العهد إلا أهل الفناء والبقاء، لأنهم بالله فيما يقولون، فليس لهم عن أنفسهم إخبار، ولا مع غير الله قرار، وأما من لم يبلغ هذا المقام فلا عهد له؛ لأنه بنفسه، فمن تعلق بمثل هذا فهو على خطر، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: { بلى من كسب سيئة } ، من اقتنى حب الدنيا أحاطت به أشغالها وعلاقها، فهو في نار القطعية مقيم، أحاط به سرادق الهموم والأكدار، تلدغه عقارب الشكوك والأغيار، بخلاف من أشرفت عليه أنوار الإيمان، وصحب أهل الشهود والعيان، فإنه في روح وريحان وجنة ورضوان، متعنا الله بذلك في الدارين. أمين.

#@ { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهََ وَيَالْوَالِدِينَ إِحْسَابًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ } #

قلت: { لا تعبدون } : خبر في معنى النهي، كقوله تعالى: { وَلَا يُصَآرَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ }

[البقرة: 282]، وهو أبلغ من صريح النهي، لما فيه من إيهام أو المنهي سارع إلى الانتهاء، وقيل: " حذفت " أن " ، وارتفع المضارع، وهو على حذف القول، أي: وقلنا لهم: لا تعبدون، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالغيب.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا إذ أخذنا الميثاق على بني إسرائيل وقلنا لهم: لا تصوّر منكم شرك معي ولا ميل إلى غيري، فلا تعبدوا إلا إياي، وأحسنوا { بالوالدين } إحساناً كاملاً، وأحسنوا { وذو القربى } نسباً وديناً، وأحسنوا

باليتمام { وَالْمَسَاكِينَ } ، بالمواساة والملاطفة، { وَقُولُوا لِلنَّاسِ } قولاً  
{ حُسْنًا } أو ذا حسن، وهو ما لا لغو فيه، ولا تأثيم بل ما فيه نصح وإرشاد،  
{ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ } بإتقان شروطها وكمال آدابها، وأدوا { الزَّكَاةَ } لمستحقها، {  
تُمْ } بعد ذلك { تَوَلَّيْتُمْ } ، وأعرضتم { إِلَّا قَلِيلًا } ممن أسلم { مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ  
مُعْرِضُونَ } عن الحق ظهوره.

ذكر الحق تعالى في هذا العهد أربعة أعمال: عمل خاص بالقلب، وهو التوحيد،  
وعمل خاص بالبدن، وهو الصلاة، وعمل خاص بالمال، وهو الزكاة، وعمل عام وهو  
الإحسان، ورثتها باعتبار الأهم فالأهم، فقدّم الوالدين لتأكيد حقهما الأعظم، ثم  
القرابة لأن فيهم أجر الإحسان وصله الرحم، ثم اليتامى لقلّة حيلتهم، ثم  
المساكين لضعفهم، والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل عهد أخذ على بني إسرائيل يؤخذ مثله على الأمة المحمدية، وهذا  
حكمة ذكر قصصهم لنا، وسرد مساوئهم علينا؛ لنتحرز من الوقوع فيما وقعوا فيه،  
فنهلك كما هلكوا، وكل عهد أخذ على العموم باعتبار الظاهر يؤخذ مثله على  
الخصوص باعتبار الباطن، فقد أخذ الحق سبحانه العهد على المتوجهين إليه ألا  
تتوجه همتهم إلا إليه، ولا يعتمدون بقلوبهم إلا عليه، وأن يتخلقوا بالإحسان، مع  
الأقارب والأجانب وكافة الإخوان، وخصوصاً الوالدين من قبل البشرية أو  
الروحانية، وهم أهل التربية النبوية، فحقوق أب الروحانية تُقدم على أب البشرية،  
لأن أب البشرية كان سبباً في خروجه إلى دار الفناء والهوان، وأب الروحانية كان  
سبباً في دخوله إلى رَوْحٍ وريحان.

وأخذ العهد على المتوجهين أن يكلموا الناس بالملاطفة والإحسان، ويرشدوهم  
إلى الكريمة المنان، وقيموا الصلاة بالجوارح والقلوب، ويؤدوا زكاة نفوسهم  
بتطهيرها من العيوب، فمن تولى بعد ذلك فأولئك الفاسقون، وعن دائرة الولاية  
خارجون.

#@ { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ  
أَفْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُسْهِدُونَ } #\* { تُمْ أَنْتُمْ هَآؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ قَرِيبًا  
مِّنْكُمْ مِّنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارًا تَقَادُوهُمْ وَهُوَ  
مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتُمُونُونَ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بَعْضٌ فَمَا جَزَاءُ مَن  
يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْنَا أَسَدًّا الْعَذَابِ  
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }

قلت: { تُمْ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ } { أَنْتُمْ } : مبتدأ، و { هَؤُلَاءِ } : خبر، و { تَقْتُلُونَ } : حال،  
كقولك: أنت ذلك الرجل الذي فعلت كذا وكذا، أو { هَؤُلَاءِ } : بدل، و { تَقْتُلُونَ } :  
خبر أو منادي، أي: يا هؤلاء، أو منصوب على الاختصاص، والْعُدْوَانُ: الإفراط في  
الظلم، و { أُسَارَى } حال، جميع أسير، وجمع على أسرى، وقرئ به: أي:  
مأسورين: و { هُوَ } ضمير الشأن، و { مُحَرَّمٌ } خبر، و { إِخْرَاجُهُمْ } مبتدأ  
مؤخر، أو ضمير الإخراج فيكون مبتدأ، و { مُحَرَّمٌ } خبره، و { إِخْرَاجُهُمْ } بدل  
من الضمير، وهذه الجملة متصلة بقوله: { وتخرجون قريباً منكم من ديارهم  
تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان } ، وما قبلها اعتراض.

يقول الحق جلّ جلاله: { و } { اذكروا أيضاً } { إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ } وقلنا لكم: { لا  
تسفكون دماءكم } أي: لا يسفك بعضكم دم بعض، { وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ } لا

دِيَارِكُمْ { أي: لا يخرج أحدكم أخاه من داره ويجليه عنها، وجعلهم الحق نفساً واحدة، وذلك هو في الحقيقة، وفي ذلك يقول الشاعر:

عُنْصُرُ الْأَنْفَاسِ مِنَّا وَاحِدٌ وَكَذَا الْأَجْسَامُ جِسْمٌ عَمَّيَا  
{ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ } بهذا العهد والتزمتوه لأنفسكم { وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ } على أنفسكم  
بذلك، { ثُمَّ أَنْتُمْ } يا { هَؤُلَاءِ } اليهود { تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ } أي: يقتل بعضهم  
بعضاً، { وَتُخْرِجُونَ قَرِيباً مِّنكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ } إجلاءً عنها، تتغالبون { عَلَيْهِمْ }  
بالظلم والطغيان، { وَإِنْ يَأْتُوكُمْ } مأسورين تفدوهم بمالكم، وذلك الإخراج  
محرم عليكم.

وحاصل الآية: أن الله تعالى أخذ علي بني إسرائيل العهد في التوراة ألا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بني إسرائيل أسيراً فاشتروه بما كان من ثمنه واعتقوه، فكانت قريظة حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، وكانوا يقتتلون في الحرب فيعين بنو قريظة حلفاءهم الأوس، فيقاتلون بني النضير في قتالهم مع الخزرج، فإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم منها، فإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه، فعيرتهم العرب، فقالوا: تقاتلونهم وتفدونهم؟! فيقولون: قد أمرنا أن نفديهم وخرم علينا قتالهم، قالوا: فلم تقاتلونهم؟ فقالوا: إنا نستحي أن يدل حلفاؤنا، فوبخهم الله على ذلك، فقال:

{ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ } وهو الفداء { وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ } وهو القتل  
والإخراج؟ { فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ } أي: ذل وهوان { فِي  
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }، وهو السبي والقتل لبني قريظة، والجلاء والإخراج من الوطن  
لبني النضير، أو الذل والجزية للفريقين إلى يوم القيامة، { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ  
إِلَى أَسَدِّ الْعَذَابِ }. وليس ما أصابهم تكفيراً لذنوبهم، بل نقمة وغضباً عليهم،  
{ وَمَا اللَّهُ بِعَافٍ لِّعَمَّا تَعْمَلُونَ }.

الإشارة: الناس على قسمين: قوم ضعفاء تمسكوا بظاهر الشريعة ولم ينفذوا إلى باطنها، ولم يقدرُوا على قتل نفوسهم، ولا على الخروج من وطن عوائدهم، فيقول لهم الحق جل جلاله: لا تسفكوا دماءكم في محبتي؛ لأنكم لا تقدرُونَ على ذلك، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم في سياحة قلوبكم، فقد أقررتكم بعجزكم وضعفكم، ويقول للأقوياء: ثم أنتم يا هؤلاء تقتلون أنفسكم في طلب معرفتي، وتخرجون فريقاً منكم من ديار عوائدهم في طلب مرضاتي، تتعاونوا على نفوسكم بالقهر والغلبة، وكذلك ورد في بعض الأخبار: (أول ما يقول الله للعبد: اطلب العافية والجنة والأعمال وغير ذلك، فإن قال: لا، ما أريد إلا أنت، قال له: من دخل في هذا معي فإنما يدخل بإسقاط الحظوظ، ورفع الحدث، وإثبات القدم، وذلك يوجب العدم) وأنشدوا:

@مَنْ لَمْ يَكُنْ قَانِيَا عَنْ حَطِّهِ وَعَنِ الْقِيَا وَالْأُنْسِ بِالْأَحْبَابِ  
فَلَا تُهَّ بَيْنَ الْمَتَارِلِ وَاقِفٌ لِمَتَالِ حَطِّ أَوْ لِحُسْنِ مَابِ  
ويقول أيضاً للأقوياء الذين قتلوا أنفسهم وخرجوا عن عوائدهم: وإن يأتوكم أسارة في أيدي نفوسهم وعوائدهم، أو في طلب الدنيا وشهواتها، تفدوهم من أسرهم، وتفكوهم من قيودهم، وتدخلوهم في حضرة مولاهم، وفي بعض الآثار: (طالب الدنيا أسير، وطالب الآخرة أجير، وطالب الحق أمير) هـ. والأمير هو الذي يفك الأسارى من أيدي العدو، لأجل ما ملكه الله من القوة والاستعداد، فإذا انفك العبد

من هواه، دخل في حضرة مولاه، فمن رام إخراجها منها بعد دخوله يقال له: وهو محرم عليكم إخراجهم، فكيف تؤمنون بظاهر الشريعة وتتكرون علم الطريقة، وأنوار الحقيقة؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا وهو الحرص والطمع، والخوف والجزع وطول الأمل، وعدم النهوض إلى العمل، { ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب } ، وهو غم الحجاب وسوء الحساب، { وما الله بغافل عما يعملون } .  
#@# { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ }  
#

يقول الحق جل جلاله: { أُولَئِكَ } الناقصون للعهود المتعدون الحدود { اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } وزخارفها الغرارة { بِالْآخِرَةِ } الباقية الدائمة، { فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ } ساعة الدنيا بالذل والهوان، وفي الآخرة بدخول النيران، { وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ } بالامتناع منه في كل أوان.

الإشارة: أولئك الذين نظروا إلى غرة ظاهرة الأكوان، ولم ينفذوا إلى عبرة باطنها، فلا ينقطع عنهم عذاب الوهم والحجاب، ولا هم ينصرون من أليم العذاب.

@# { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ }  
#

قلت: { قفينا } : أتبعنا، و { عيسى } عجمي معدول عن أيشوع في لغة السريانية، وهو غير منصرف للعلمية والعجمة، و { مريم } : بمعنى الخادم، ووزنه: مَفْعَل لا فعيل، و { أيدناه } أي: قويناه ونصرناه، و { روح القدس } هنا جبريل عليه السلام أي: الروح المقدسة - من إضافة الموصوف إلى الصفة، سمي به لطهارته من كدر الحس.

يقول الحق جل جلاله: { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى } التوراة، فما قمتم بحقها ولا عملتم بما فيها، واتبعنا بعده الرسل كلما مات رسول بعثنا بعده آخر اعتنا بكم، { وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ } المعجزات الواضحات كإحياء الموتى، وإبراء الأكمة والأبرص، والإخبار بالمغيبات، والإنجيل، { وَأَيَّدْنَاهُ } بجبريل عليه السلام كان يبسّر معه حيث سار، ورفع إلى السماء حين أردتم يا معشر اليهود قتله، { أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ } من مشاق الطاعات وترك الحطوط والشهوات، { اسْتَكْبَرْتُمْ } وامتنعتم من الإيمان به { فَفَرِّقُوا } منهم كذبتموه كعيسى وسليمان ومحمد - عليهم السلام -، { وَفَرِّقُوا } تقتلونه كزكريا ويحيى - عليهما السلام -؟ قال القشيري: أضغوا إلى الداعين بسمع الهوى، فصار معبودهم صفاتهم وهواهم. هـ.

الإشارة: كل ما قاله الحق جل جلاله لبني إسرائيل في فحوى الخطاب يقول له هذه الأمة في سر الخطاب، فلقد أتانا الكتاب، وبيّن فيه الرشد والصواب، وقفّي بعد إنزاله بعلماء أتقياء، وأولياء أصفياء، يحكمون بحكمه، ويهدون بهديه، فإذا أمروا

بالزهد في الدنيا وترك الحطوط والهوى رفضوهم وكذبوهم، وربما كفروهم  
وقتلوهم، واستكبروا عن الأذعان لهم والانقياد لقولهم، ففريقاً كذبوا وفريقاً  
يقتلون.

وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم: " لَتَتَّبِعُنَّ سُنَّيَ مَنْ مَنَحَ قَبْلَكُمْ شَيْبَرًا بِشَيْبَرٍ  
وَدَّرَاعًا بِدَّرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرًا لَدَخَلْتُمُوهُ " ، فقالوا: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ  
وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: " نَعَمْ... وَمَنْ إِذْنُ؟ " أَي: وَمَنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا هُمْ. فالدعاة إلى الله  
لا ينقطعون ما دام الدين قائماً، فقوم يدعون إلى أحكام الله، وقوم يدعون إلى  
معرفة الله، فالأول: العلماء، والثاني: الأولياء، فإذا أمروا بالخروج عن العوائد  
والشهوات، رموهم بسهام العتاب والمخالفات، إذ لم يأت أحد بمثل ما جاءوا به إلا  
عودي، إلا من خصته سابق العناية، وهبت عليه ريح الهداية، فيتبع آثارهم، وقليل ما  
هم.

{ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ }  
#

قلت: { غُلْفٌ } : جمع أَلْفٍ، كَأَحْمَرٍ وَحُمْرٍ، وَأَصْفَرٍ وَصُفْرٍ، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ غَشَاوَةٌ،  
أَي: هِيَ فِي غِلَافٍ؛ فَلَا تَفْقَهُ مَا تَقُولُ، بِمَنْزِلَةِ الْأَعْلَفِ، وَهُوَ غَيْرُ الْمَخْتُونِ، وَقِيلَ:  
أَصْلُهُ { غُلْفٌ } بضم اللام، وبه قرأ ابن محيصة. فيكون جمع غلاف، كحجاب  
وحجب، وكتاب وكتب، ومعناه، قلوبنا أو عية لكل علم فلا نحتاج إلى علمك وكتابك.  
و { قَلِيلًا } صفة لمحذوف؛ أَي: فإيماناً قليلاً، أو عدداً قليلاً يؤمنون، أو ظرف؛  
لأنه من صفة الأحيان، والعامل فيه ما يليه، و { ما } لتأكيد القلة، أَي: في قليل  
من الأحيان يؤمنون، أو حال من الواو في { يؤمنون } أَي: فيؤمنون في حال  
قلتهم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: قالت اليهود استهزاء بما تدعوهم إليه: { قُلُوبُنَا } مغلفة  
ومغشاة فلا نفقه ما تقول، أو أوعية للعلوم فلا نحتاج إلى علمك، قال الله تعالى:  
{ بَلْ } لا غطاء على قلوبهم حساً، بل هي على الفطرة لكن { لعنهم الله }  
وطردهم وخذلهم بسبب { كُفْرِهِمْ } فأبطل استعدادها للعلم، { قَلِيلًا مَّا  
يُؤْمِنُونَ } أَي: فإيماناً قليلاً يؤمنون كإيمانهم ببعض الكتاب، أو فلا يؤمن إلا قليل  
منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه، والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا أمر الدعاة إلى الله أهل الدنيا بذيح النفوس وحث الرؤوس ودفع  
الفلوس، ليتأهلوا به لدخول حضرة القدوس، أو أمرهم بخرق العوائد، لتخرق لهم  
العوائد، أنفوا وعنفوا وقالوا: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، فيقال لهم: بل سبق  
لكم من الله البعد والحرمان، فأنكرتم أسباب الشهود والعيان، لكن من سبقت له  
من الله العناية، وهبّ عليه نسيم الهداية، فلا تضره الجناية، فقد يلتحق  
بالخصوص، وإن كان من أعظم اللصوص، وهو قليل بالنسبة إلى من جاهد نفسه  
في طلب السبيل،  
{ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا }  
[الكهف: 45].

#@ { وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْهِخُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ }  
#

قلت: { لَمَّا } حرف وجود لوجود إذا وليها الماضي، ولها شرط وجواب، وهو هنا محذوف دل عليه جواب { لما } الثانية، أي: ولما جاءهم كتاب من عند الله كفروا به، أو { لما } الثانية تأكيد للأولى. والجواب: { كفروا به } ، أو فلما وجوابها جواب الأولي، كقوله:

{ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ ... }

[طه: 123] الآية، و { يستفتخون } ينتصرون، وفي الحديث: " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يَسْتَفْتِخُ بِصَعَالِيكِ الْمُهَاجِرِينَ " ، الذين لا مال لهم.

يقول الحق جل جلاله: { وَلَمَّا جَاءَهُمْ } أي: اليهود، القرآن مصدقاً { لَمَّا مَعَهُمْ } من التوراة، أي: موافقاً له وشاهداً له بالصحة، وقد كانوا قبل ظهوره يستنتصرون على أعدائهم بالنبي الذي جاء به، فيقولون: اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان، الذي نجد نعته في التوراة، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: (قد أطل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم)، فلما ظهر وعرفوه كفروا به { فَلَعْنَةُ اللَّهِ } عليهم، فوضع الظاهر موضع المضمرة؛ للدلالة على أنهم لعنوا لكفرهم، فاللام في { الْكَافِرِينَ } للعهد، وهم كفار اليهود، أو للجنس، فتكون اللعنة عامة لكل كافر، ويدخلون فيها دخولاً أولياً، والله تعالى أعلم.

الإشارة: ترى كثيراً من الناس إذا ذكر لهم الأولياء المتقدمون أفروهم وصدقوهم، وإذا ذكر لهم أولياء أهل زمانهم أنكروهم ووجدوهم، مع كونهم يستنتصرون بأهل زمانهم في الجملة. فهذه نزعة يهودية، أمنوا ببعض وكفروا ببعض.

والناس في إثبات الخصوصية ونفيها على ثلاثة أقسام: قسم أثبتوها للمتقدمين، ونفوها عن المتأخرين، وهم أقبح العوام، وقسم أفروها قديماً وحديثاً، وقالوا: إنهم أخفياهم في زمانهم، فحرمهم الله بركتهم، وقوم أفروا الخصوصية في أهل زمانهم، وعرفوهم وظفروا بهم وعظموهم، وهم السعداء الذين أراد الله أن يوصلهم إليه ويقربهم إلى حضرته. وفي الحكم: " سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه ". وبالله التوفيق.

#@ { يُنْسِمَا اسْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَيْنَا مِنْ بَشَائِرٍ مِّنْ عِبَادِهِ قَبَائِرٍ وَيَعْصِبَ عَلَيْنَا عَصَبٌ لِّلْكَافِرِينَ عَدَابٌ مُُّهِينٌ }  
#\* { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ قَلِمَ تَقُولُونَ أَنبيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }

قلت: بنس ونعم: فعلان جامدان مختصان بالدخول على ما يدل على العموم، إما نكرة، فتنصب على التمييز المفسر للضمير الفاعل، أو معروف بأل الجنسية، فيرتفع على الفاعلية، تقول: بنس رجلاً زيداً، وبنس الرجل زيد، ويذكر بعد ذلك

المخصوص: إما خبر عن مبتدأ مضمّر، أو مبتدأ والخبر مقدم. وإنما اخْتَصَّتْنا بالدخول على ما يدل على العموم؛ لأن { نعم } مستوفية لجميع المدح، و { بئس } مستوفية لجميع الذم. فإذا قلت: نعم الرجل زيد، فكانك قلت: استحق زيد المدح الذي يكون في سائر جنسه، وكذلك تقول في بئس.

و { ما } المتصلة ببئس ونعم: نكرة منصوبة على التمييز، أي: بئس شيئاً اشتروا به أنفسهم، وهو كفرهم، أو معرفة تامة مرفوعة على الفاعل، أي: بئس الشيء شيء اشتروا به أنفسهم. و { اشتروا } هنا بمعنى باعوا، كَشَرُوا على خلاف الأصل، وقد يمكن ان يبقى على أصله، على ما يأتي في بيان المعنى.

و { بغيا } مفعول من اجله ليكفروا، و { يكفرون } حال من الفاعل في { قالوا }، و { وراء } في الأصل: مصدر جعل ظرفاً، ويضاف إلى الفاعل ويراد به ما يتوارى به وهو خلفه، وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو قدامه، ولذلك عد من الأضداد، قاله البيضاوي.

يقول الحقّ جلّ جلاله: في شأن اليهود: بئس شيئاً باعوا به حظ أنفسهم، وهو كفرهم بما أنزل الله، أو { بئسما اشتروا به أنفسهم } بحسب ظنهم، فإنهم ظنوا أنهم خلصوا أنفسهم من العذاب بما فعلوا، وهو كفرهم بما أنزل الله على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم بغياً وحسداً أن يكون النبي من غيرهم، فانقلبوا { بَعْصَبٍ عَلَى عَصَبٍ } للكفر والحسد لمن هو أفضل الخلق، أو لكفرهم بمحمد - عليه الصلاة والسلام - بعد عيسى عليه السلام، أو لتضييعهم التوراة، وكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، { وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ } أي: يذلهم ويخزيهم في الدنيا والآخرة، بخلاف عذاب العاصي فإنه كفارة لذنوبه.

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا لِلَّهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ } على محمد صلى الله عليه وسلم { قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا } من التوراة، وهم { يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ } أي: بما سواه، وهو القرآن، حال كونه { مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ } من التوراة ومهيماً عليه. { قُلْ } لهم يا محمد: { قَلِمَ تَقُولُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ } هذا الزمان، وهو محرم عليكم في التوراة، { إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } به؟ فهذا يبطل دعوكم الإيمان بالتوراة؛ إذ الإيمان بالكتاب يقتضي العمل به، وإلا كان دعوى، وإن فعله أسلافكم فأنتم راضون به وعازمون عليه.

الإشارة: اعلم أن قاعدة تفسير أهل الإشارة هي أن كل عتاب توجه لمن ترك طريق الإيمان، وأنكر على أهله يتوجه مثله لمن ترك طريق مقام الإحسان، وأنكر على أهله.

@وكل وعيد توعده به أهل الكفران يتوعد به من ترك السلوك لمقام الإحسان، غير أن عذاب أهل الكفر حسي بدني، وعذاب أهل الحجاب معنوي قلبي.

فنقول فيمن رضي بعبية وأقام على مرض قلبه وأنكر الأطباء ووجود أهل التربية، بئسما اشتروا به أنفسهم، وهو كفرهم بما أنزل الله من الخصوصية على قلوب أوليائه بغياً وحسداً، أو جهلاً وسوء ظن، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباؤوا بغضب الحجاب على غضب البعد والارتياب، أو بغضب سقم القلوب على غضب الإصرار على المساوي والعيوب. (من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر) كما قال الشاذلي رضي الله عنه، ولا يصح

التغلغل فيه إلا بصحبة أهله. وللكافرين بالخصوصية عذاب الطمع وسجن الأكوان،  
وهما شجرة الذل والهوان.

وإذا قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله من أسرار الحقيقة وأنوار الطريقة، قالوا: نؤمن  
بما أنزل علينا من ظواهر الشريعة، وبكفرون بما وراءه من أسرار الحقيقة،  
ككشف أسرار الذات وأنوار الصفات، وهو - أي: علم الحقيقة - الحق؛ لأنه خالص  
لب الشريعة، ولله در صاحب المباحث الأصلية حيث قال:

هل ظاهرُ الشرعِ وعلمُ الباطنِ إلا كجسمٍ فيه رُوحٌ ساكنٌ؟  
وقال أيضاً:

ما مثلُ المعقولِ والمنقولِ إلا كدُرٍّ زاخِرٍ مَجْهُولِ  
حتى إذا أُخْرِجَهُ الْعَوَاصُ لَمْ يَكُ لِلدُّرِّ إِذْنَ خَلَاصُ  
وإنَّامَ خَلَاصُهُ فِي الكَشْفِ عَنِ الْغِطَاءِ حَيْثُ لَا يَسْتَحْفِي  
قَالَصَدَفُ الظَّاهِرُ ثَمَ الدُّرُّ مَعْقُولُهُ وَالْجَهْلُ ذَاكَ الْبَحْرُ  
وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول: (هل تمَّ شيءٌ غيرُ ما فهمناه من  
الكتاب والسنة؟)، كان يقول ذلك إذا قيل له: إن الشيخ الشاذلي فاض اليوم بعلوم  
وأسرار، فلا التقى بالشيخ وأخذ بيده، قال: (أي والله... ما قعد على قواعد  
الشريعة التي لا تنهدم إلا الصوفية). ويقال لمن ادعى التمسك بالشريعة وأنكر ما  
وراءها: فلم تشغل بجمع الدنيا واحتكارها وتخاف من الفقر، وتهتم بأمر الرزق  
وتجزع من المصائب، والشريعة تنادي عليك بدم ذلك كله إن كنت مؤمناً؟! وبالله  
التوفيق.

@# { وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ }  
#

قلت: جملة: { وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ } حال من { اتخذتم }.

يقول الحق جلّ جلاله: { وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ } بالمعجزات الواضحات: كالعصا  
واليد وخلق البحر، ثم لم ينجح ذلك فيكم، فاتخذتم العجل إليها تعبدونه من بعد  
ذهابه إلى الطور { وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ } في ذلك، فأين دعوكم الإيمان بالتوراة؟

الإشارة: ويقال لمن أقام على عيبه، ورضي بمرض قلبه، حتى لقي الله بقلب  
سقيم: لقد جاءكم أوليائي بالآيات الواضحات، ولو لم يكن إلا شفاء المرضى على  
أيديهم - أعني مرضى القلوب - لكان كافياً، ثم اتخذتم الهوى إلهكم، وعبدتم  
العاجلة بقلوبكم، وعزّت عليكم نفوسكم وفلوسكم، وأنتم ظالمون في الإقامة  
على مساوئكم وعيوبكم، مع وجود الطبيب لمن طلب الشفاء، وحسن الظن  
وشهد الصفاء. (كن طالباً تجد مرشداً) وبالله التوفيق.

@# { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا  
قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ  
إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ }  
#

قلت: { إن كنتم } : شرط حذف جوابه، أي: إن كنتم مؤمنين فبئس ما يأمركم به إيمانكم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { و { اذكروا أيضاً { إذ أخذنا ميثاقكم { أن تعملوا بالتوراة فأبىتم { ورفعنا فوقكم { جبل { الطور { وقلنا: { خذوا ما آتيناكم بقوة { واجتهاد { واسمعوا { ما أقول لكم فيه { قالوا { بلسان حالهم: { سمعنا { قولك { وعصينا { أمرك، حيث لم يمثلوا، أو بلسان المقال لسوء أدبهم، { وأشربوا في قلوبهم { حب { العجل { حتى صبغ فيها ورسخ رسوخ الصبغ في الثوب، لأنهم كانوا مُجَسَّمَةً، ولم يروا منظرًا أعجب من العجل الذي صنعه السامري، { قل { لهم يا محمد: { بئسما يأمركم به إيمانكم { بالتوراة الذي ادعيتموه، { إن كنتم مؤمنين { ، لكن الإيمان لا يأمر بهذا فلسستم مؤمنين.

الإشارة: يقول الحقّ جلّ جلاله لمن ادعى كمال الإيمان، وهو منكر على أهل الإحسان، مع إقامته على عوائد نفسه، وكونه محجوباً بشهود حسه: وإذا أخذنا ميثاقكم، بأن تجاهدوا نفوسكم، وتخرقوا عوائدكم لتدخلوا حضرة ربكم، ورفعنا فوق رؤوسكم سيوف التخويف، أو جبال التشويق، وأوضحنا لكم سواء الطريق، وقلنا لكم: خذوا ما آتيناكم من خرق العوائد، واكتساب الفوائد، بجد واجتهاد، فأبىتم وعزّت عليكم نفوسكم، وقلتم بلسان حالكم: سمعنا وعصينا، وأشربت قلوبكم حب العاجلة، وأثرت الدنيا على الآخرة، بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين.

@# { قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَيَمَتُّوْا المَوْتِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } \*# { وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }

قلت: { خالصة } خبر كان، و { عند } متعلق بكان على الأصح.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل { يا محمد لبني إسرائيل الذين ادعوا أن الجنة خاصة بهم: { إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله { أي: في غيبه، { خالصة } لكم { من دون { سائر { الناس } ، أو من دون المسلمين، { فتمنوا الموت إن كنتم صادقين { في اختصاصكم بهم، فإن العبد إذا تحقق أنه صائر إليها اشتاق إلى الموت الذي يوصل إليها، كما قال عمار رضي الله عنه عند موته:

الآن ألاقى الأجيّة مُحمّداً وجرّبته  
وقال حذيفة رضي الله عنه حين احتضر: (جاء حبيبٌ على فاقة، لا أفلح من تدم).

أي: على التمني، أو على الدنيا.

قال تعالى: { ولن يتمنوه أبداً { بسبب { ما قدمت أيديهم { من الكفر والعصيان، فما تمناه أحد منهم قط، قال ابن عباس: (لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم في النار). وقال في الأحياء: (دعا - عليه الصلاة والسلام - اليهود إلى تمني الموت، وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه، فحيل بينهم وبين النطق

بذلك). وذكر غيره: أن بعضهم تمناه، فما جاءت العشاء حتى أخذته الدبحة في حلقه فمات. { والله عليم بالظالمين } ، فيه تهديد لهم وتنبيه على أنهم ظالمون في دعوى ما ليس لهم، وفيه عمن هو لهم.

الإشارة: في هذه الآية ميزان صحيح توزن به الأعمال والأحوال ويتميز به المدعون من الأبطال، فكل عمل يهدمه الموت فهو مدخول، وكل حال يهزمه الموت فهو معلول، وكل من فرّ من الموت، فهو في دعواه المحبة كذاب، فمن ادعى الخصوصية على الناس يختبر بهذه الآية.

والناس في حب البقاء في الدنيا على أربعة أقسام:

رجل أحب البقاء في الدنيا لاغتنام لذاته ونيل شهواته، قد طرح أخراه، وأكَبَّ على دنياه، واتخذ إلهه هواه، فأصمه ذلك وأعماه، إن دُكر له الموت فرّ عنه وشرد، وإن وعِظَ أَيْفَ وَعَتَدَ، عمره ينقص، وحرصه يزيد، وجسمه يبلى، وأمله جديد، وحتفه قريب، ومطلبه بعيد، فهذا إن لم تكن له عناية أزلية، وسابقة أولية فيمسك عليه الإيمان، ويختم له بالإسلام، وإلا فقد هلك.

ورجل قد أزيل عن عينه قذاها، وأبصر نفسه وهواها، وزجرها ونهاها، قد شمر ليتلافى ما فات، ونظر فيما هو آت، وتاهب لحلول الممات، والانتقال إلى محلة الأموات، ومع هذا فإنه يكره الموت أن يشاهد وقائعه، أو يرى طلائعه، وليس يكره الموت لذاته، ولا لأنه هَادِمٌ لِدَاتِهِ، لكنه يخاف أن يقطع عن الاستعداد ليوم المعاد، ويكره أن تطوى صحيفة عَمَلِهِ قبل بلوغ أمله، وأن يبادر بأجله قبل صلاح خله، فهو يريد البقاء في هذه الدار لقضاء هذه الأوطار، فهذا ما أفضل حياته: وأطيب مماته! لا يدخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم:

@ " مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ "

ورجل آخر قد عرف الله تعالى بأسمائه الحسنی، وصفاته العلیا، وشهد ما شهد من كمال الربوبية، وجمال حضرة الألوهية، فملأت عينه وقلبه، وأطاشت عقله ولبّه، فهو يحن إلى ذلك المشهد، ويستعجل إنجاز ذلك الموعد، قد علم أن الحياة الدنيوية حجابٌ بينه وبين محبوبة، وسترٌ مُسدل بينه وبين مطلوبه، فهذا من المحبين العشاق، قد حنّ إلى الوصال والتلاق، أحب لقاء الله فأحب لقاءه، فما أحسن حياته ولقاءه!

ورجل آخر قد شهد ما شاهد ذلك، وربما زاد على ما هنالك، لكنه فوّض الأمر إلى خالقه، وسلم الأمر لبارئه، فلم يرض إلا ما رضي له، ولم يرد إلا ما أريد به، وما اختار إلا ما حكم به فيه، إن أبقاها في هذه الدار أبقاها، وإن أخذه فهو بغيته ومناه، فهذا من العارفين المقربين. جعلنا الله منهم بميته وكرمه. آمين:

@# { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَيَا حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَّزَحٍ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } #

قلت: { ومن الذين أشركوا } : على حذف مضاف، أي: وأحرص من الذين أشركوا، فيوقف عليه، و { لو يعمر } مصدرية، أي: يود أحدهم تعمير ألف سنة. و { أن يعمر } فاعل لمزحزحه، أي: وما هو بمزحزحه من العذاب تعميره.

يقول الحقّ جلّ جلاله: ولتجدن يا محمد اليهود { أحرص الناس } على البقاء في هذه الدار الدنية، فكيف يزعمون أنهم أولى الناس بالجنة، ولتجدنهم أيضاً أحرص من المشركين على البقاء، مع كونهم لا يقرون بالجزاء، فدل ذلك على أنهم صائرون إلى النار، فلذلك كرهوا اللقاء وحرصوا على البقاء، يتمنى أحدهم لو يعيش { ألف سنة } وليس ذلك { بمزحزحه } أي: مبعده من العذاب، بل زيادة له في العقاب { والله بصير بما يعملون } : تهديد وتخويف.

الإشارة: يفهم من سر الخطاب أن كل من قصر أمله، وحسن عمله، وطيب نفسه للقاء الحبيب، واشتغل في هذه اللحظة القصيرة بما يقربه من القريب، كان قربه من الله بقدر محبته للقاءه، وكل من طوّل أمله، وحرص على البقاء في هذه الدار الفانية، كان بُعده من الله بقدر محبته للبقاء، إلا من أحب البقاء لزيادة الأعمال، أو الترقى في المقامات والأحوال، فلا بأس به، ويفهم منه أيضاً أن من اشتد حرصه على الحياة الفانية كانت فيه نزعة يهودية.

واعلم أن الناس، في طول الأمل وقصره، على قسمين: منهم من طوّل في أمله فازداد في كسله، ودخله الوهن في عمله، وآخر قد قصر أمله وجعل التقوى بضاعته، والعبادة صناعته، ولم يتجاوز بأمله ساعته، ومثل هذا قد رفع التوفيق عليه لواءه، وألبسه رداءه، وأعطاه جماله وبهاءه، فانظر رحمك الله أيّ الرجلين تريد أن تكون، وأي العمليين تريد أن تعمل، وبأي الرءاءين أن تشتمل؟ فلست تلبس هناك إلا ما تلبس هنا. وبالله التوفيق.

#@ { قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيْنَا قَلِيلًا بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ } #\* { مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ }

قلت: { من } شرطية وجوابها محذوف، أي: فليمت غيظاً، أو { فإنه نزله } على معنى: من عادى منهم جبريل فقد خلع ريقه الإنصاف، أو كفر بما معه من الكتاب؛ لأنه نزل بكتاب مصدقاً لما قبله من الكتب، وجبريل فيه ثماني لغات، أربع قرئ بهن. وهي: جِبْرِيل كسلسيل. وَجِبْرِيل كجَحْمَرش، وَجِبْرِيل - بفتح الجيم - بلا همز، وَجِبْرِيل بكسرهما، وأربع شواذ: جِبْرَالُ، وَجِبْرَائِيل، وَجِبْرَائِل، وَجِبْرِين بالنون، ومعناه: عبد الله. وفي ميكائيل أربع لغات: ميكائيل ممدود، وميكائيل مقصور، وميكئيل مهموز مقصور، وميكال على وزن ميعاد.

يقول الحقّ جلّ جلاله: في الرد على اليهود، كابن صوريا وغيره، حيث قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: من الذي يأتيك بالوحي؟ فقال: " جبريل " ، فقالوا: ذلك عدونا من الملائكة؛ لأنه ينزل بالشدة والعذاب، ولو كان ميكائيل لاتبعتنا؛ لأنه ينزل بالخصب والسلم، فقال تعالى: { مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ } فليمت غيظاً، فإنه هو الذي نزل القرآن { عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ } من الكتب، وهداية { وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } ، فإن كان ينزل بالشدة والعذاب على الكافرين، فإنه ينزل بالهداية والبشارة على المؤمنين.

ومن كان عدواً لجبريل فإنه عدو لله، إذ هو رسيوله للأنبياء، وصفيه من الملائكة، وعدو أيضاً لميكائيل فإنه وزيره، وللرسل أيضاً فإنه سفيرهم، و { مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ } فإن الله عدو له. وعطف جبريل وميكائيل من عطف الخياص على العام لزيادة شرفهما، ووضع الظاهر موضع الضمير في قوله: { عَدُوًّا لِلْكَافِرِينَ } ولم يقل: لهم، تسجيلاً عليهم بالكفر، وبيان أن الله إنما عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة والرسل كفر، عصمنا الله من موارد الردى، آمين.

الإشارة: إذا كانت معاداة الملائكة والرسل هي معاداة الله، فكذلك معاداة أوليائه هي معاداة الله أيضاً، ولذلك قال تعالى: " مَن عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ " فالبعض هو الكل، ويؤخذ بالمفهوم أن محبة الملائكة والرسل هي محبة الله. وكذلك محبة أولياء الله هي محبة الله، وكذلك أيضاً محبة عباد الله هي محبة الله، ومعاداتهم معاداة الله. " الْخَلْقُ عِيَالُ اللَّهِ، وَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ ". وكل مَن ادعى أنه يحب الله وفي قلبه إنكار على مخلوق فهو كاذب، وكل مَن ادعى أنه يعرف الله وفي قلبه إنكار على مخلوق فهو في دعواه أيضاً كاذب، فالواجب على العبد أن يحب جميع العباد، من كان طائعاً فطاهر، ومَن كان عاصياً أحب له التوبة والإنابة، ومَن كان كافراً أحب له الإسلام والهداية، ولا يكره من العبد إلا فعله، ولله دَر القائل:

ارْحَمْ بَنِيَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ كُلَّهُمْ      وَاَنْظُرْ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ الْحِلْمِ وَالشَّفَقَةِ  
وَقَرِّ كَبِيرَهُمْ وَاَرْحَمْ صَغِيرَهُمْ      وَرَاعِ فِي كُلِّ خَلْقٍ مِّنْ خَلْقِهِ  
وبالله التوفيق.  
@# { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْقَاسِقُونَ }  
#

يقول الحق جل جلاله: { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ } يا محمد { آيَاتٍ } واضحات، مشتملة على علوم غيبية، وأخبار نبوية، وشرائع محكمة، وأنوار قدسية، وأسرار جبروتية، وما يجدها ويكفر بها إلا المتمرد في الكفر والطغيان، الخارج عن الطاعة والإيمان، فالفسق، إذا استعمل في نوع من المعاصي، دل على أعظمه وأقبحه، وهو هنا الكفر، والعياذ بالله.

الإشارة: اعلم أن العبد إذا سبقت لهم من الله العناية، ألقى الله في قلبه التصديق والهداية، من غير أن يحتاج إلى علامة ولا آية، بل يكشف له الحق تعالى عن سر الخصوصية وأنوارها، فيشهد سره لصاحبها بالتقويم، وتخضع له روحه بالتعظيم، فتدبوا له أنوار الإيمان وتشرق عليه شمس العرفان، من غير توقف على دليل ولا برهان، بخلاف من سبق له الحرمان، فلا ينجح فيه دليل ولا برهان، والعياذ بالله من الخذلان.

ولما ذكّر النبي صلى الله عليه وسلم اليهود في شأن العهد الذي أخذه الله عليهم فيه، قال مالك بن الصيف: والله ما عهد إلينا في محمد عهدٌ ولا ميثاق.

@# { أَوْكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا تَبَدَّه قَرِيْقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ }  
#

قلت: الهمزة للإنكار، والواو للعطف على محذوف تقديره: أكفروا بالآيات وكلما عاهدوا عهداً، و { كَلَّمَا } منصوب على الظرفية، وهي متضمنة معنى الشرط فتفتقر للجواب، وهو العامل فيها. والنبذ: الطرح، لكنه يغلب فيما ينسى، قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: في شأن اليهود والإنكار عليهم: { أَوْ كَلَّمَا } أعطوا عهداً وعقدوه على أنفسهم طرحه { قَرِيْقٌ مِّنْهُمْ }؟ فقد أعطوا العهد أنهم إن أدركوا محمداً صلى الله عليه وسلم ليؤمنن به ولينصرنه، فلما أدركوه نبذوا ذلك العهد ونسوه. وكذلك أعطوا العهد للنبي صلى الله عليه وسلم ألا يعاونوا المشركين عليه، فنبذه بنو قريظة والنضير، ولم ينقضه جميعهم بل فريق منهم، وهم الأكثر، ولذلك قال: { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } ، فالأكثر هم الناقضون للعهد، المجاوزون للحدود. والله تعالى أعلم.

الإشارة: نقض العهد مع الله أو مع عباده من علامة النفاق، ومن شيم أهل البعاد والشقاق، والوفاء بالعهد من علامة الإيمان، ومن شيم أهل المحبة والعرفان. قال تعالى في صفة المفلحين:

{ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ }  
[المؤمنون: 8]، ولا سيما عهد الشيوخ؛ أهل التمكين والرسوخ، فمن أخذ عقد الصحة مع الشيخ الذي هو أهل للتربية؛ فيحذر من حلّ العقدة بينه وبينه، فإن ذلك يقطع الإمداد، ويوجب الطرد والبعاد، والاتفات إلى غيره تسويس لبذرة الإرادة، وموجب لقطع الزيادة والإفادة، ثم إن الانجماع على الشيخ، وقطع النظر والاتفات إلى غيره هو سبب للكون - كذلك - مع الله، فيقدر الانقطاع إلى الشيخ يحصل الانقطاع إلى الله، ويقدر ترك الاختيار وسلب الإرادة مع الشيخ يحصل كذلك مع الله، ويقدر الوفاء بعهد شيوخ التربية يحصل الوفاء بعهد حقوق الربوبية. فمن كانت غيبته في الشيخ أقوى، وانحياشه إليه أكثر، وجمعه عليه أدوم، كان كذلك مع ربه، وكذلك التعظيم والأدب، والله يعامل العبد على حسب ذلك.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: (ولا تنتقل عنه، ولو رأيت من هو أعلى منه، فتحرّم بركة الأول والثاني)، ولذلك كان المشايخ يمنعون أصحابهم من صحة غيرهم، بل من زيارتهم، وأنشدوا:

حُدِّ مَا تَرَاهُ وَدَعَّ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الْبَدْرِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ رُحْلِ  
وحاصل أمر الزيارة لغير شيخه أن فيه تفصيلاً؛ فمن كمل صدقه، وتوفر عقله، بحيث إذا زار لا يستنقص شيخه، ولا الذي زاره، جاز له أن يزور من شاء، ومن لم يكمل صدقته وعقله، بحيث إذا زار: إما يستنقص شيخه، أو الشيخ الذي زاره، فليكف عن زيارة غير شيخه. وقال محيي الدين بن العربي: ويجب على المرید أن يعتقد في شيخه أنه عالم بالله، ناصح لخلق الله، ولا ينبغي له أن يعتقد في شيخه العصمة. وقد قيل للجنيد: أيزني العارف؟ فقال:  
@# { وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَّعْدُورًا }  
#

[الأحزاب: 38]. وصحب تلميذ شيخاً، فرآه يوماً قد زنا بامرأة، فلم يتغير من خدمته، ولا أحل في شيء من مرسومات شيخه، ولا ظهر منه نقص في احترامه.

وقد عرف الشيخ أنه رآه، فقال له يوماً: يا بني قد عَرَفْتُ أَنَّكَ رَأَيْتَنِي حِينَ فَسَقْتُ  
بِتِلْكَ الْمَرَأَةِ، وَكُنْتُ أَنْتَظِرُ فِرَاقَكَ عَنِّي مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ: فَقَالَ لَهُ التَّلْمِيزُ: يَا سَيِّدِي  
الْإِنْسَانُ مَعْرُضٌ لِمَجَارِي أَقْدَارِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنِّي مِنَ الْوَقْتِ الَّذِي دَخَلْتُ فِيهِ إِلَى  
خِدْمَتِكَ مَا خِدْمَتِكَ عَلَى أَنَّكَ مَعْصُومٌ، وَإِنَّمَا خِدْمَتِكَ عَلَى أَنَّكَ عَارِفٌ بِطَرِيقِ اللَّهِ  
تَعَالَى، عَارِفٌ بِكَيْفِيَةِ السَّلُوكِ عَلَيْهِ الَّذِي هُوَ طَلِبِي، وَكَوْنُكَ تَعْصِي أَوْ لَا تَعْصِي  
شَيْءٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يَرْجِعُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ عَلَيَّ، فَمَا وَقَعَ مِنْكَ يَا سَيِّدِي  
شَيْءٌ لَا يُوجِبُ نِفَارِي وَزَوَالِي عَنْكَ، وَهَذَا هُوَ عَقْدِي، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: وَفَقْتُ  
وَسَعَدْتُ هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا... فَرَبِحَ ذَلِكَ التَّلْمِيزُ، وَجَاءَ مِنْهُ مَا تَقَرَّرُ بِهِ الْعَيْنُ مِنْ حَسَنِ  
الْحَالِ وَعُلُوِّ الْمَقَامِ. هـ.